وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العربي التبسي - تبسة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر (ل.م.د)

تخصص: لسانيات عربية

رسالة"الصَّاهِلِ والشَّاحِجِ" لأبي العلاء المعري

دراسة تداولية

إعداد الطالبتين:

- خولة عروس
- خولة براح

إشراف الدكتور:

رشيد عمران

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة
عبد الحميد عمروش	أستاذ محاضر -أ-	رئيسا
رشيد عمران	أستاذ محاضر -ب-	مشرفا ومقررا
الطيب العزالي قواوة	أستاذ محاضر -أ-	مناقشا

السنة الجامعية: 2022/2021

جامعة العربي التبسي - تبسة
Université Larbi Tebessi - Tebessa

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العربي التبسي - تبسة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر (ل.م.د)

تخصص: لسانيات عربية

رسالة "الصَّاهِلِ والشَّاحِجِ" لأبي العلاء المعري

دراسة تداولية

إعداد الطالبتين:

- خولة عروس
- خولة براح

إشراف الدكتور:

رشيد عمران

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة
عبد الحميد عمروش	أستاذ محاضر -أ-	رئيسا
رشيد عمران	أستاذ محاضر -ب-	مشرفا ومقررا
الطيب العزالي قواوة	أستاذ محاضر -أ-	مناقشا

السنة الجامعية: 2022/2021

جامعة العربي التبسي - تبسة
Université Larbi Tebessi - Tebessa

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

شكر وعرفان:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نشكر الله تعالى على فضله، الذي وفقنا لإنجاز هذا العمل فله الحمد أولا وآخرا

كما نتقدم بأسمى عبارات الشكر والعرفان للوالدين الكريمين فهما سبيل النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

نتوجه بالشكر إلى الأستاذ الفاضل والمرشد النصوح الدكتور "عمران رشيد" على توجيهاته ونصائحه القيمة التي أفادنا بها طوال رحلة البحث. كلمات الثناء لا توفيك حقك، شكرا لك على عطائك ولك منا فائق الاحترام والتقدير.

كما نتوجه بخالص شكرنا وتقديرنا لكل من ساعدنا من قريب أو بعيد على

إنجاز هذا البحث.

وكل توفيق من الله وحده.

شباب اليوم
SHBAB-2DAY.NET

copyright©dgreetings.com

الإهداء:

اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وآله وصحبه، ومن تبع هداه إلى يوم الدين، الحمد لله الذي أعانني على إنجاز هذا العمل أما بعد:

يسرني أن أهدي ثمرة تعبي وعصارة جهدي وثواب عملي المتواضع إلى من ربياني صغيرة والدي العزيزين.

إلى صاحب السيرة العطرة، والأفعال الحسنة، والفكر المستنير، من له الفضل الأول في بلوغي التعليم العالي، هو حقا نعم السند، لم يقم بوأد أحلامي، بل وجهني لأحصدها في جميع أيامي، إلى أبي الغالي «محمد» حفظه الله ورعاه.

إلى من جعل الله الجنة تحت قدميها، إلى أحلى كلمة نطق بها لساني، إلى من أفضلها على نفسي، ولم لا، فقد ضحت من أجلي، ولم تدخر مجهودا في سبيل سعادتي، إلى أمي أغلى الأمهات «غالية» أطال الله عمرها، أقسم بمن أحل القسم أنها لذة الحياة في عيني.

إلى القلوب الطاهرة والطيبة، إلى مصدر سعادتي في الحياة، بهم يشد ساعدي فهم ركائز نجاحي إخوتي الأعزاء: «عقبة، منذر، ياسين ومعتز»، النعمة التي لا يشعر بها إلا من تمتع بها، فيا رب احفظهم لي.

إلى نعيم الحياة وطمأنينة القلب أختي «تقوى» دامت لي نورا لا ينطفئ بداخلي، إلى زوجة أخي «نرجس».

عن الحب هن حبيباتي، وعن الوفاء هن معنى الوفاء، وعن الصداقة هن صديقاتي وعن الأخوة هن أخواتي، إلى «رحاب، حسناء، منال، ووسام».

إلى صديقاتي ورفيقاتي دربي «سرور، زهية، خولة، مروى، الروميساء، أسماء.ه، أسماء.ق، رؤى»

كما أهدي ثمرة جهدي لأستاذي الكريم الدكتور «عمران رشيد» دمت مشعل نور يضيء الدروب ويمحو الجهل

عروس خولة

Fatakat.com

الإهداء:

إلى من لا يمكن للكلمات أن توفي حقه، إلى من لا يمكن للأرقام أن تحصى فضائله، إلى من أحمل اسمه بكل فخر «أبي العزيز خير الدين حفظه الرحمن»

إلى من لا حضن بعدها يدفيني، ولا ملجأ بعدها يأويني

إلى نبع المحبة والحنان، إلى رمز المشاعر الصادقة إلى «أمي الحبيبة فتيحة أطال الله عمرها».

إلى من ينشر فينا أحلى البسمات، فتحلو بقربهما كل الأوقات أخويا «لؤي وسيد وعلي».

إلى عوني في أختاي «وردة وريتاج»

إلى صديقتي وأختي الغالية «خولة» ولأن الصداقة حظ ورزق أشكر الله أن رزقني إياها لأنها لم تكن انتقاء بل كانت نعمة.

إلى الذين يسعهم قلبي ولا تسعهم كلماتي وقلمي، صديقاتي: «مروى، أسماء.ه، رؤى، أسماء.ق، الروميساء، رفيقة، فريال»

إلى كل الأساتذة الكرام إلى أستاذي المشرف الدكتور «عمران رشيد» الذي كلما سألناه عن معرفة زودنا بها، وكلما طلبنا كمية من وقته وفرها لنا شكرا وألف شكر

إلى كل من أسهم معنا في إتمام بحثنا حتى لو كان ذلك بالدعاء

إليهم جميعا أهدي فرحة نجاحي.

براح خولة

Fatakat.com

مقـــدمة

شكل الاهتمام باللغة ضرورة إنسانية حتمية باعتبارها أداة التواصل والتفاهم بين البشر فدونها يتعذر على الإنسان إيصال وتبليغ مراده، لأن أفكاره تصاغ في قالب لغوي لكي تتجسد في الواقع، ولقد اهتم الباحثون بدراستها من أجل التعرف على طبيعتها والوقوف على نظامها، وبذلك تعددت مناهج دراستها على حسب توجه وفكر كل دارس لها، فاهتم البعض بوصفها في فترة زمنية محددة، والآخر إلى رصد التغيرات التي تطرأ عليها عبر الزمن، والبعض الآخر إلى مقابلة إحداها بالأخرى لكي تتحدد صلة القرابة بينها، وتصنف إلى أسر وفروع لغوية، لكن هذه المناهج صورية شكلية اهتمت بدراسة مميزات اللغة وإجراءاتها الداخلية، وعجزت عن تفسير ووصف جوانب أخرى كاستعمالها أو تحديد مقاصد المتكلم، وكان هذا الجانب من الدراسة من اختصاص الدرس التداولي الذي يهتم بالجانب الاستعمالي والإنجازي للكلام وربطه بسياقات إنتاجه وتلقيه.

ومن هذا المنطلق تجاوزت التداولية النظرة الضيقة للغة التي اقتصرت على دراستها كبنية مغلقة، وأصبحت جديرة بأن تسمى علم الاستعمال اللغوي، ومما ساعدها على ذلك التقاؤها مع مجموعة من العلوم والمعارف، فجمالها رحب يأخذ من كل العلوم، كعلم النفس والاجتماع واللسانيات مثلا.

والمكتبة العربية غنية بالعديد من الكتب القيمة ومنها ما اتخذ من الكتابة على ألسنة الحيوانات أداة للتعبير عما يختلج أنفسهم، ككتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع و"القائف" و"خطب الخيل" ورسالة "الصَاهِلِ والشَاحِجِ" لأبي العلاء المعري، ومحاورة هذه الكتب سبيل إلى الارتقاء بالفكر والأدب لزخرها وغناها بشتى مجالات المعرفة، وسنجعل من رسالة "الصَاهِلِ والشَاحِجِ " مدونة لمذكرتنا الموسومة بـــ: " **رسالة الصَاهِلِ والشَاحِجِ لأبي العلاء المعري دراسة تداولية** "، وبالتالي تكون صياغة الإشكالية كالآتي: **كيف تجسد الكتابة على ألسنة الحيوانات أبعاد التداولية؟**

وتتفرع عن هذه الإشكالية أسئلة فرعية من بينها:

- ما هي التداولية؟
- كيف عرفها العلماء العرب والغرب؟
- ما أهم قضايا التداولية التي تجسدت فرسالة الصاهل والشاحج؟

وتعود أسباب اختيارنا لهذه الرسالة كأنموذج للدراسة إلى سببين ذاتية وموضوعية.

تمثلت الأسباب الذاتية في:

- الرغبة في الاطلاع.
- الميول الشخصي والرغبة الخاصة في هذا النوع من الدراسة.
- دراسة تداولية لأهميتها البالغة في تنمية القدرات المعرفية والفكرية.

أما الأسباب الموضوعية فهي:

- الوقوف على آليات التداولية الموظفة في رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري.
- محاولة الكشف عن جماليات نص الرسالة وتحديد السبب الذي دفع أبا العلاء المعري إلى سردها على لسان الحيوان.
- إثراء مكتبة الكلية بموضوع جديد، ذلك أننا قد لاحظنا أن الدراسة التداولية لا تطبق في الغالب للقص على لسان الحيوان.

لكل دراسة هدف وارتأينا أن يكون هدف دراستنا كالآتي:

- إعطاء رؤية جديدة لفهم نص عربي قديم.
- اكتشاف القدرة اللسانية في الكتابة على ألسنة الحيوانات.

- فك شيفرات الرسالة وتأويلها تأويلا مناسب لإدراك المقاصد الحقيقية التي دفعت أبا العلاء لتأليفها.

والدافع الذي جعلنا نختار المنهجين التاريخي والتداولي ونطبقه في بحثنا الموسوم بـــ **رسالة "الصَاهِلِ والشَاحِجِ" لأبي العلاء المعري دراسة تداولية** ، هو أن هذين المنهجين هما المناسبان لهذا النوع من الدراسة، إذ يهتم المنهج التاريخي برصد الأحوال السياسية في حلب فترة الغزو الرومي والبحث في حياة أبي العلاء المعري على غرار المنهج التداولي الذي يهتم بالكشف عن الأبعاد التداولية في هذه الرسالة، والبحث عن قصدية الكاتب في ثنايا الرسالة.

ولمعالجة الإشكالية ارتأينا تأسيس البحث على مقدمة ومدخل وفصلين وخاتمة، كان **المدخل بعنوان: أبو العلاء المعري والكتابة على ألسنة الحيوانات**، تعرضنا فيه إلى: ترجمة المؤلف بتحديد اسمه وكنيته ونسبه، ثم تطرقنا إلى أثر آفة العمى على نفسيته، ثم فصلنا الحديث عن طلبه للعلم ورحلاته وعرضنا السبب الذي دفع أبا العلاء إلى عزلة الناس ولزوم منزله، كما أشرنا إلى شيوخه وتلاميذه وأهم مؤلفاته وبينا أن أبا العلاء المعري قد هرم وأصابته الشيخوخة بدون أن تضعف أي ملكة من ملكاته سواء العقلية أو الخلقية. إلى أن توفي سنة 449هـــ وختمنا المدخل بتعريف الكتابة على ألسنة الحيوانات.

أما الفصل الأول:-فصل نظري- موسوم بـــ: "مصطلحات مفاهيمية" تطرقنا فيه إلى تحديدا الجذر اللغوي للتداولية وتعريفها عند العلماء العرب والغرب، ثم تحدثنا عن نشأة التداولية ووجدنا أنها منبثقة من التفكير الفلسفي وتطورت إلى أن أرسى معالمها العالمان "تشارلز ساندرس بيرس" و "تشارلز موريس" وفصلنا الحديث حول قضايا التداولية والمتمثلة أساسا في: الإشاريات بأنواعها ومتضمنات القول ثم الأفعال الكلامية

والاستلزام الحواري ثم حددنا أهمية التداولية ومهامها لتكون كل تلك التصورات مفاهيم نظرية يتأسس عليها الجزء التطبيقي وتطرقنا في نهاية الفصل إلى مضمون الرسالة.

والفصل الثاني: –فصل تطبيقي–معنون بـــ: "قضايا التدوالية في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري" مقسم إلى أربعة أقسام وهي: الإشاريات بأنواعها، متضمنات القول، الأفعال الكلامية والاستلزام الحواري، فاخترنا مجموعة من النماذج المبثوثة في ثنايا الرسالة والمحتوية على كل قضية من بين هذه القضايا، وحددنا البعد التداولي لكل منها.

وأخيرا**خاتمة**كانت بمثابة حصيلة لنتائج الموضوع مجملين فيها أهم النقاط التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة.

لم نعثر على دراسة تتناول رسالة "الصاهِل والشاحِج" من منظور تداولي وإن كانت الرؤية التداولية قد توجهت إلى العديد من المدونات بالدراسة، ولذلك خصصنا هذه الدراسة التداولية لرسالة الصاهل والشاحج.

وكان لزاما علينا لإنجاز هذا البحث اعتماد جملة من المصـــادر والمراجـــع لعـــل أهمها: – الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره لمحمد سليم الجندي.

– أبو العلاء وما اليه لعبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي.

–التداولية أصولها واتجاهاتها لجواد ختام.

–النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة لأحمد فهد صالح شاهين.

–في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم لخليفة بوجادي.

– التداولية عن العلماء العرب لمسعود صحراوي.

وكأي بحث علمي واجهتنا العديد من الصعوبات تمثلت في:

- قلة المراجع الخاصة بهذا الموضوع في المكتبة الجامعية، إضافة إلى دراسات قليلة لمضمون الرسالة.

ويعود الفضل في إتمام البحث للمولى عز وجل الذي نحمده ونشكره على نعمتي الصبر والصحة، ثم الأستاذ الفاضل "عمران رشيد" مشرفا ومقررا الذي نشكره جزيل الشكر على رقيه الفكري وما قدمه لنا من نصائح وتصويبات من أجل إنجاز بحثنا، فله كل التقدير والاحترام، كما لا يفوتنا أن نقدم شكرنا وامتنانا لعضوي لجنة المناقشة الأستاذ "عبد الحميد عمروش" رئيسا ، والأستاذ "قواوة الطيب العزالي" عضوا مناقشا اللذين تكلفا عناء القراءة والتصويب فلهما منا كل الاحترام والتقدير.

وكل توفيق من الله وحده

مدخل:

أبو العلاء المعري

والكتابة على

ألسنة الحيوانات

أولا: أبو العلاء المعري

1- ترجمة المؤلف:

أ- **اسمه:** يعد أبو العلاء المعري شخصية فذة متميزة في الأدب العربي وأعظم فحول الشعراء، يعود نسبه حسب رواية "ابن خلكان" إلى « أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن داوود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن جذيمة* بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن إلحاف بن قُضاعة التُّنوخي المعري اللغوي الشاعر»[1].

ب- **قبيلته:** التُّنُوخ قبيلة عربية أصيلة، يتصل نسبها بيعرب بن قحطان جد العرب العاربة، ويمضي النسابون بها إلى بعيد فيصلونها بهود بن شالح بن رافد بن سام بن نوح عليه السلام، وكانت تنوخ بطونا من تيم اللات القضاعة القحطاني، سميت بذلك لأنها تنخت من قديم بالشام، أي أقامت ورسخت، ويقال أنهم الذين اختطو الحيرة وكانوا أول من عمرها ونزلها وكان لهم بأس وقوة وغناء وكثرة وماضيهم حافل بالمعزة والقوة والإباء، وكان لهم في الجاهلية وقائع ظافرة مع الفرس، ويشهد المؤرخون لتنوخ بأنها كانت من أكثر العرب مناقبا وحسبا،وكانوا في الإسلام من أشد قبائل العرب شوكة وأكثرهم في جند الفتوح عددا، وقد أبلوا في قتال الفرس بلاء مشهودا، حمية للعرب، وإن كانوا على دين النصرانية /.../ وبنو الساطع الذين منهم بيوت المعرة أعز بطون تنوخ «وهم المشهورون بالشرف والرياسة والشجاعة، والفضل واسم الساطع: النعمان بن عدي

---

*جذيمة: خزيمة بن تيم الله، جاء في النسخة المطبوعة ببولات جذيمة بالجيم والذال المعجمة وما نص عليه في كتب اللغة والأنساب "خزيمة بالخاء والزي مصغرا".

[1]- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، م 1، د ط، 1398م-1978م، ص 113.

قيل أنه لقب بالساطع لجماله وبهائه، وكان جوادا شجاعا، ملك عليهم برهة، وكانت له حروب ووقائع مع ملوك الفرس وشن الغارات على السواد، فسميت التنوخ على أيامه بالدواسر، لما ظهر من شدتهم وبأسهم، وبعض المؤرخين يقولون أن معرة النعمان تنسب إليه وآخرون يذهبون إلى أنها مستوية إلى النعمان بن بشير الأنصاري»[1]. يبين لنا "ياقوت الحموي" في "معجم البلدان" أن من الخطأ إرجاع سبب تسمية معرة النعمان لابن بشير الأنصاري الذي بقي حزينا عدة أيام بسبب موت ابنه وهو مجتاز بها ويرى بأن مثل هذا السبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة والرأي الصحيح عنده هو: « أنها مسماة بالنعمان الملقب بالساطع، قلت: وهو النعمان بن عدي، أحد أجداد المعري المذكورين في نسبه، والذي ذكره ياقوت مقبول، فإن تسمية بلدة باسم أحد قطانها المشهورين فيها أقرب من تسميتها بأحد المجتازين بها، وذهب "الشريشي" في شرح المقامات إلى أنها أضيفت لجبل مطل عليه اسمه "النعمان" ولم يذكر ياقوت هذا الجبل»[2].

ج- معرة النعمان: اختلف العلماء في الأصل الذي اشتق منه لفظ المعرة هو موضع العر، أي الجرب وقد جاء في اللغة لمعان كثيرة منها الاثم، والعزم والجناية وتلون الوجه من الغضب، والأمر القبيح والأذى والشدة، وقالت العرب: أرض معرة إذا انجرد نباتها وأرض معرة إذا كانت قليلة النبات وقد جاء في كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اللهم إني أبرأ إليك من معرة الجيش قيل: هي أن يتولوا بقوم فيأكلوا من زروعهم شيئا بغير علم، وقيل أن يقاتلوا بدون إذن الأمير، والمعرة اسم لهذه المدينة ولقرى كثيرة، منها ما بقي أثره إلى هذا العهد ومنها ما انطمست معالمها ولم يبق إلا ذكره وخبره[3].

---

[1]- ينظر، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي: أبو العلاء المعري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د ط، د ت، ص 8-9.

[2]- أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعرب، مؤسسة هنداوي للتعليم، الثقافة القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص 19.

[3]- ينظر، محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي علاء المعرب وآثاره، تع: عبد الهادي هاشم، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، ج 1، د ط، 1382ه - 1962م، ص 42.

«ومعرة النعمان كما قال ياقوت وغيره مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة، وكانت من ثغور شام التي تسمى العواصم، سماها بها هـــارون الرشـــيد لعصمتها ما دونها من بلاد الإسلام من العدو»[1].

والمعرة كما قال "ابن حوقل": «مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفســـتق ومـــا شاكل ذلك من الكروم، وقال ابن جبير في رحلته إليها:هي سواد كلهـــا بشـــجر الزيتـــون والتين والفستق وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا»[2].

د- مولده:

ولد أبو العلاء المعري يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بَقَيْنَ من شـــهر ربيـــع الأول 963هـــ[3].

ه- كنيته: سماه أبو أحمد -والده- وكناه «بأبي العلاء منذ ولد وقد جرى في ذلـــك علـــى عادة أهل بلده، إذ قل ما وجدنا نابها بها فيهم في ذلك العهد إلا وله كنية، والظـــاهر أنهـــم كانوا ويكنون الأولاد منذ الحداثة، أو قبل أن يولد لهم، كما قال أبو العلاء المعـــري فـــي اللزوم:

من عثرة القوم أن كنوا وليدهم أبا فلان ولم ينسل ولا بلغا

ويبدو أن أبو العلاء كني بمقتضى هذه العادة وهو صغير»[4].

1- عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه، ص 14.

2- المرجع نفسه، ص 16.

3- المرجع نفسه، ص 13.

4- محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره: ص 73.

سماه أبواه بهذا الاسم ولكنه كرهه حين بلا نفسه وعرف أخلاقه فرأى أن من الكذب اشتقاق اسمه من الحمد، وإنما ينبغي أن يشتق من الذم /.../ورأى أنه من الظلم أن يضاف إلى التصعيد والعلو، وإنما العدل أن يضاف إلى السقوط والهبوط، يقول:

دعيت أبا العلاء وذلك مين ولكن الصحيح أباالنزول[1].

إذ يفصح أنه ليس براض عن كنيته بأبي العلاء، إنما المحبب لديه أن يسمى بأبي النزول، وهذا من باب التواضع والابتعاد عن معاني الاحتقار والكبرياء والافتخار بالكنى والألقاب، وكنيته أبو العلاء بالفتح والمد إلا أن الناس كانوا ينطقون بها مقصورة في عصره.

يقول أبو العلاء المعري في قصيدته: "شكوت من أهل هذا العصر غدرهم":

«والإلف هان له أمري فقصرني كما تهون على ذي المنطق الألف.

وقد أعيب على أبو الحسين النكتي البصري، –أحد أصدقاء شيوخه–، تسميته إياه محمدا بدل أحمد وأبا العلى موضع أبو العلاء معيبا يعتريه سخرية وأطال في ذلك، إلا أنه يستحق العذر فضيعة ذاك كان في الشعر والتقاءه بأبي العلاء المعري لم يكن سوى مرة أو مرتين، إلا أن رد المعري كان ردا صارحا في رفضه لهذه الضرورة الشعرية، ولو استعمل ضرورة أخرى لقبلت حجته، وحجته في ذلك:**فما كفاني ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الاسم»**[2].

وقد كني بأبي العلاء جماعة من أهل المعرة: «منهم أبو العلاء بن عبد الله بن المحسن بن الحسين بن محمد بن أحمد بن جعفر، أبو العلاء سعد بن حماد، والظاهر أنهم

[1]– طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص 99.

[2]– عبد العزيز الميمي الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1424هـ، 2002م، ص 23.

كنوا أولادهم بهذه الكنية، تيمنا بأن يكونوا مثل أبي العلاء هذا، والأخير -أبو العلاء سعد بن حماد- روى ملقى السبيل عن أبي العلاء»[1].

و- لقبه: لقب أبو العلاء نفسه «برهين المحبسين منزله وذهاب عينيه ثم رأى أنه في ثلاثة سجون لا في محبسين كما في قوله في ديوانه "**لزوم ما لم يلزم**":

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدي ناظري، ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث[2].

يتضح من خلال هذا البيت أن أبا العلاء المعري قد قيد نفسه طواعية على عكس باقي الشعراء الذين كانوا يميلون للحرية أكثر وسمى نفسه برهين المحبسين إلا أنه رهين ثلاثة سجون هي: العمى ولزوم البيت وكون نفسه حبيسة في جسد مريض لا يسمو إلى مكانتها.

2- أسرته: تعد الأسرة معين الإنسان فهي اللبنة الأساسية والأولى لكل مجتمع، يتلقى فيها الفرد التربية والأخلاق والسلوك المناسب، ويتعلم بها العديد من أمور الحياة، وكانت أسرة أبي العلاء المعري مشهورة بعلمها وسعة ثقافتها، وانعكس ذلك الأمر بالإيجاب على أبي العلاء المعري.

أ- أسرته لأبيه:«كان أبو العلاء المعري من بيت علم وقضاء ورياسة وثراء، تولى جماعة من أهله قضاء المعرة وغيرها»[3].

---

[1]-محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره، ص 53.

[2]- وسم مجيد البكري وضرغام محمود الدرة: أبو العلاء المعري بين الزمخشري والرازي دراسة دلالية في ثلاثة مواقف، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، العراق، بغداد، ط 1، 2010، ص 15.

[3]-أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص 15.

حيث كان من آبائه وأعمامه ومن تقدمه من أهله وتأخر عـنهم فضـلاء وقضـاة وشعراء من بينهم:

جده: «سليمان بن أحمد بن سليمان قاضي المعرة، وتولى القضاء بحمص وبهامات في سنة 290 هـ، ثم ولي القضاء بعده بها ولده أبو بكر محمد عم والد أبي العلاء، وبعده أخوه أبو محمد والد أبي العلاء، وبعده أخوه أبو محمد والد عبد الله والد أبي العلاء، ولعبد الله شعر في مرثية والده:

إن كان أصبح من أهواه مطرحا بباب حمص فما حزني بمطرح

لو بان استر ما أخفيه من خزع لمات أكثر أعدائي من الفرح

وتوفي والد عبد الله بحمص سنة سبع وسبعين وثلاثمئة»[1]، «وسنة 395 هـ على قول ابن العديم في المعرة»[2]. ومن الثابت أن وفاته كانت في هذا العام.

ومن إخوة أبي العلاء المعري نذكر أبو المجد مجد بن عبد الله وكان أسن –أكبر– له شعر في الزهد، وعبد الواحد أبو الهيثم القائل في الشمعة:

وذات لـــون كلـوني فـــي تغيـره وأدمـــع كدمـــوعي في تحدرها

سهرت ليلي وباتت بي مسهدة كأن ناظرها في قلب مسهرها

فعبد الواحد أبو الهيثم يفصح لنا من خلال هذين البيتين أن الشاعر يـذوب حـال الشمعة ما إن اشتعل فتيلها لم يبق بها شيء كذلك هي حالته أثناء تغيره من الفـرح إلـى

[1]– ياقوت الحموي الرومي: معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: الدكتور إحسان عبـاس، دار الغـرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1993، ص 296.

[2]– محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره، ص 55.

الحزن فدموعه كدموع الشمعة في انسكابها فقد وجد فيها أنيسة له في وحدته باقيـــة معـــه طوال الليل.

ثم يذكر ياقوت لنا العديد ممن شهروا بالفقه والعلم والأدب في أسرة أبـــي العـــلاء المعري وقد أحصاها كلها من أسرة أبيه دون ذكر أسرة أمه، ويستدرك ذلك طه حســين وأبو العلاء المعري في كتابيهما "تجديد ذكرى أبي العلاء" و "أبو العلاء وما إليه" الحديث عن عائلة أمه.

ب- أسرته لأمه:«أصهر عبد الله بن سليمان إلى أسرة بحلب تعرف في رسائل أبي العلاء بآل سبيكة، وكان شعر أبي العلاء ونثره يمقلان لنا من هذه الأسرة ثلاث خصال:

الأولى: كثرة الرحلة وجوب الآفاق وذلك يظهر في رسائله وفي قصيدة من ســقط الزنـــد بعث بها إلى أحد أخواله وقد عاد من سفره إلى المغرب ومطلعها:

تفديك النفوس ولا تفادى فأدن القرب أو أطل البعاد

ومنها:

كأن بني سيـــكة فوق طـــــير يجوبون الغـــــوائر والنجـــــاد

أبا الاسكندر الملك اقتديتم فما تضعون في بلد وسادا[1].

في البيتين السابقين دلالة واضحة على صفة من صفات أسرة المعـــري ألا وهـــي كثرة السفر، ومن المفردات الدالة على ذلك: أدن القرب، ما تضعون في بلد وسادا، فـــوق طير، فآل سبيكة في نظر المعري دائمة الترحال كالطير، ونادرا ما تستتر في مكان وبلـــد معين ويظهر ذلك جليا في عجز البيت الثاني من القصيدة.

[1]- طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، ص 97.

«الثانية: كرم النفس وسخاؤها بالمال وحرصها على صلة الرحم ويمثل ذلك رثـــاء أبـــي العلاء لأمه وشكره لخاله غير مرة في الرسائل على معونته إياه، بل إن سفره إلى بغـــداد ومقامه بها ورجوعه منها لم يكن إلا من نوافل خاله هذا.

الثالثة: حب العلم والنبوغ فيه، يمثل ذلك بالمكاتبة التي اتصلت بين أبي العـــلاء بـــالمعرة وبين خاله أبي طاهر حينما كان في بغداد في شأن كتاب السيرافي الذي شرح بـــه كتـــاب سيبويه وكذلك لفظ الرسائل التي كتبها إلى أخواله وأسلوبها يدلان على أنـــه يـــرى لهـــم التفوق واتقان العلم»[1].

ومما ذكر عن جده لأمه محمد أنه «كان حيا قبل رحلته إلى بغداد وأقرأه أبو العلاء المعري السلام في رقعتين له إلى أبي طاهر، وهما الثاني عشر والرابع عشر وكـــان لـــه ثلاثة من الأولاد الذكور وهم على ترتيب الأسنان فيما يظهر من فحوى الرســـالة الثلثـــين وغيرها أبو القاسم علي ابن محمد بن سبيكة، أبو بكر، أبو طاهر المشرف»[2].

«فأما أبو القاسم علي فقد أرسل إليه أبو العلاء المعري قصيدة دالية وفيها يقول:

أرانا يا علي وإن أقمنا نشاطرك الضبابة والسهادا

ورسالة أخرى عند طلوعه من العراق يذكر فيها موت أمه ويصف له بعـــض مـــا لقيه في بغداد وطريقهما، ويعتذر من عدم مروره بحلب في الذهاب والإياب.

وأما أبو بكر فكما ذكر" سليم الجندي" لم يعثر له على خبر، ولم يظهر إلا في الرسالة التي كتبها أبي العلاء إلى خاله أبي القاسم يعزيه فيها به أنه كان يكنى بأبي بكر، وأنه توفي في دمشق وأن له ولدا كهلا ولولده أبناء.

---

[1]– طه حسين: المرجع السابق، ص 98.

[2]– عبد العزيز الميمي الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه، ص 31.

وخاله الثالث أبو طاهر: لم يذكر المتقدمون أن له خالا يكنى بأبي طاهر بل استنتج المتأخرون ذلك من خلال رسائله.

وقد أرسل أبو العلاء المعري إلى أبي طاهر كتابا وهو ببغداد يبحث عن كتاب آخر يقال أنه شرح السيرافي لكتاب سيبويه، وليس فيه ما يدل على أنه خاله وإنما جاء في عنوانه: كتب إلى أبي طاهر المشرف بن سبيكة /.../ وذكره في رسالته إلى خاله أبي القاسم التي كتبها إليه حين طلوعه من العراق، وفيها يقول: «وأما سيدي أبو طاهر فقد حملني من الأنعام /.../ ومن أشبه أباه فما ظلم»[1].

وكان أبو العلاء المعري يحب أخواله من صميم قلبه ويبذل لهم نخيلة صدره فهم الذين كفلوه من ريعانه إلى محتوم إبانه وهم الذين أعانوه بالمرافق واللوازم في رحلته إلى بغداد[2].

«وأمه من بني سبيكة *الحلبيين فقد كانوا من ذوي المروءة والشرف والكلام ونبل الأخلاق والحرص على صلة الرحم»[3]. نستنتج أنا أبا العلاء المعري شديد التعلق بأسرة أمه نتيجة لعملهم الخير معه فقد ساعدوه في محنته وكانوا بمثابة العين بالنسبة له، فقرر أن يرد جميلهم بإيصال شكايتهم إلى عزيز الدولة.

---

[1]– محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثره، ص 62–63.

[2]– عبد العزيز الميمي الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه، ص 33.

*بنت محمد بن سبيكة

[3]– جعفر خرياني: أبو العلاء المعري رهين المحبسين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1411هـ–1990م، ص 10.

3- أبو العلاء المعري وآفة العمى:حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث قال: «حدثني ابن الهاد عن عمرو مولى المطلب عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله عليه وسلم يقول: إن الله عز وجلقال:إذا ابتليت عبدي بحبيبته فصبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه»[1].

من أشد وأشق المصائب على الإنسان في صحته فقدان بصره لأن كثيرا من النعم إنما تدرك بحاسة البصر كجمال الطبيعة ورونقها مثلا، فإدراك الأعمى وتمتعه بجمالها لا يكون كتمتع البصير، وعوض الله لتلك الفئة من الناس، عظيم فقد وعد الصابر على هذا البلاء بالجنة.

كما أن الكثير ممن فقدوا أبصارهم عوضوا بما هو خير منها ألا وهو رؤيا بصائرهم، فأقبلوا على الدنيا إقبال المبصرين وأبدعوا في العديد من مجالات الحياة والفكر، كما أن «العميان أصح الناس حفظا وأوعاهم وأذكاهم وأرعاهم، والسبب في ذلك عدم تشتت الباصرة في المغاز والمسالك وأن كل قوة طبيعة يزيد فيها الأعمال وينقص منها الإهمال، والعميان أحوج من البصر إلى حفظ الأشياء، وقد روي في حفظهم أخبار ونوادر، شوارد وسوائر، وناهيك بما ألم به الصفدي منها في النكت»[2].

ويكون للعمى أثر إيجابي إذا أصلح الأعمى تفكيره وأدرك أن الله إنما أخذ منه شيئا ليعوضه بما هو خير منه، ويكون سلبيا إذا لم يدرك ذلك، من بين العميان ممن اشتهروا وأبدعوا في مجال الفكر والأدب: طه حسين، عبد الحميد كشك، بشير تاوريريت، بشار بن برد، أبو العلاء المعري وهو محط دراستنا.

---

[1]- محمد الشافعي القسطلاني: إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، نص: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 12، 1416هـ، 1996م، حديق رقم 5653، ص 384.

[2]- عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه ويليه رسالة الملائكة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1424هـ، 2003م، ص 36.

استطاع المعري بإرادته التجاوز والتغلب على عصره، فالعمى عند أغلب العميان محنة إلا أن أبي العلاء أرجعه إلى منحة، فتحولت ظلمات عماه بين يديه إلى عصر نور، وقد سمع أبو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر أبا العلاء يقول:

«أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر، فقد ضع لي وأحسن بي إذا كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء .... ونسبوا إليه هذين البيتين:

قالوا العمى منظر قبيح قلت بفقدانكم يهون

والله ما في الوجود شيء تأسى على فقده العيون

وقدنسبها "الشر يشي" إلى "بشار" و"الوطواط" لأبي العيناء، وحمد الله على العمى ليس عن سرور واغتباط به وإنما هو من تلقي القضاء بالرضى والاستلام إلى ما يستطاع دفعه»[1].

ويرجع السبب في إصابة المعري بآفة العمى «إلى مرض الجدري*وقد اختلفت الكلمة في زمن عماه، فقيل أنه ولد أعمى، وقيل: عمي وهو ابن ثلاث سنين، وقيل ابن

---

[1]–محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وأثره، ص 66-67.

* الجدري: هو مرض تلوثي يسببه فيروس يدعى VARIOLA (فاريولا)، معد ينتقل من شخص إلى آخر، من بين أعراضه الطفح الجلدي بشكل الفقاعات السوداء، المليئة بسائل كدر ومنه يأتي الاسم الجدري الأسود.

– البازل: ورد في "مقاييس اللغة لابن فارس"، بزل: الباء والزاء واللام أصلان: تفتح الشيء والثاني الشدة والقوة، فأما الأول فيقال بزلت الشراب بالمبزل أنزله بزلا، ومن هذا قولهم بزل البعير إذا فطرنا به، أي انشق، ويكون ذلك لحجته التاسعة، وشجة بازلة إذا ال دمها، وانبزل الطلع إذا تفتق، ومن الباب البازلة وهي المشية السريعة، لأن المسرع مفتح في مشيته.

وفي "لسان العرب لان منظور" جمع البازل بزل، يقال للبعير إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة وفطر نابه فهو حينئذ بازل، وكذلك الأنثى بغير هاء، جمل بازل وناقة بازل: وهو أقصى أسنان البعير، والبازل أيضا اسم السن التي تطلع في قوت البزول، والجمع بوازل.

– الربع: ورد في مقاييس اللغة: ربع: الراء والباء والعين أصول ثلاثة: أحدما جزء من أربعة أشياء، والآخر الإقامة، والثالث الرفع، فأما الأول فالربع من الشيء، يقال ربعت القدم أربعهم، إذا أخذت ربع أموالهم، وربعتهم أربعهم، إذا كنت لهم رابعا، والمقصود بالبازل والربع: الكبير والصغير.

أربع، وقيل: ابن أربع وشهر، وقيل: ابن سبع، وقال الخطيب البغدادي: أنه عمي في صبه، وقيل وعمي وهو ابن سبعين عاما، وأصح الأقوال أنه أصيب بالجدري وذهب بصره وهو ابن أربع سنين»[1]، «لكن أبا العلاء يقول في احدى رسائله إلى داعي الدعاة: «قضي علي وأنا ابن أربع، لا أفرق بين البازل والربع*»[2]، ولأن هذا القول منقول عن أبي العلاء المعري فهو أصدق الأقوال.

وعمي بالجدري وجدر «أول سنة سبع وستين وثلاثمائة، ولا زال الجدري يضنيه ويعنيه ويلح عليه حتى ذهب بيسرى عينيه جملة وغشى يمناهما بالبياض، ثم لم يكن إلا قليل حتى فقد ما بقي فيها من قوة الإبصار، داهمته هذه الداهمة وهو صبي لا يعقل ذاكرته أشدها، فلم يستطع حين شب أن يتذكر ما رأى من الألوان ولم يبق في ذاكرته إلا الحمرة»[3]. لأنه ألبس ثوبا أحمرا في علته، حيث يقول:لا أعرف من الألوان إلا الأحمر، لأني ألبست في الجدري ثوبا مصبوغا بالعصفر، لا أعقل غير ذلكوبقي لنا من ملامح صورته بعد المحنة ما نقله "ابن العديم" في "الإنصاف والتحري" حكاية عن ابن منقذ أنه رأى أبي العلاء وهو صبي دون البلوغ ووصفه فقال:وهو صبي دميم الخلقة، مجدور الوجه، على عينه بياض من أثر الجدري، كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا»[4].

«وقد ذكر في "أنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي" «أن أبو طاهر أحمد بن محمد الأصفهاني قال في كتابه: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن الوليد بن غريب الإيادي: كان يحفظ من شعر أدباء بلده شعرا يسيرا من جملته أبو العلاء التنوخي حيث سمعه يقول:دخلت على أبو العلاء وأنا صبي مع عمي أبي طاهر نزوره فرأيته قاعدا على

---

[1]– محمد سليم الجندي، المرجع السابق، ص 65.

[2]– عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: أبو العلاء المعري، المؤسسة العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د ط، ص 33–34.

[3]– طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، ص 100–101.

[4]– عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، أبو العلاء المعري، ص 34.

سجادة لبد وهو شيخ فدعا لي ومسح على رأسي، وكأني أنظر إليه الساعة وإلى عينيه، إحداهما نادرة، والأخرى غائرة جدا، وهو مجدر الوجه، نحيف الجسم، كما يذكر أن مشايخ الأدب اليمن يذكرون أن أبا العلاء كان يحفظ ما يمر بسمعه وكان عنده من الطلبة من يطالع له التصانيف الأدبية لغة وشعرا وغير ذلك وكان لا يكاد ينسى شيئا مما يمر بسمعه»[1]، على الرغم من ضعف أبي العلاء المعري وفقدانه عينيه اللتان تمكنانه من تحصيل الأمور إلا أنه عرف بقوة بداهته وسعة مخزونه الفكري والعلمي ويرجع هذا إلى حكمة الله تعالى، فبيده ملكوت كل شيء إذ يصرف المنح والمحن كما يشاء.

4- طلبه للعلم ورحلاته:

أ- **طلبه للعلم:**الطريق الوحيد لدى الأطفال العميان في الشرق كما يقول طه حسين- «هو طريق الدرس وتحصيل العلم ينصرفون بكل همتهم إلى ذلك ليخرجوا من ظلمات الحياة وظلم الأحياء موفوري الكرامة، مزودين بهذا السلاح الماضي الذي لا يقهر ولا يفل /.../ وهذا تماما ما فعله المعري ونجح فيه إلى حد بعيد»[2].

وبما أن المعري من بيت علم وقضاء ورياسة وثراء فقد تولى جماعة من أهله قضاء المعرة كجده سليمان بن أحمد بن سليمان لذلك بدأ أبو العلاء درسه اللغوي على يد أبيه «فقاده أبوه إلى عالم يمنحه نور البصيرة ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام عينيه: فقرأ القرآن على جماعة من الشيوخ -ممن يُسَارُ إليهم في القراءات- وسمع الحديث من أبيه عبد الله وجده سليمان وأخيه أبو المجد وجدته أم سلمة بنت الحسن بن اسحاق بن بلبل المعري، وعن أبي زكريا يحي بن مسعر المعري، وأبي الفرج عبد

---

[1]- طه حسين: تعريف القدماء بأبي العلاء، تح: مصطفى السقا وآخرون، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر 1843هـ، 1965م، ص 33.

[2]- خليل شرف الدين: أبو العلاء المعري، مكتبة لسان العرب، بيروت، لبنان، 1979م، ص 62.

الصمد الضرير الحمصي والقاضي أبي عمرو عثمان الطرسوسي وغيرهم من محدثي المعرة وحلب في زمانه»[1].

فقرأ أبو العلاء المعري النحو واللغة أولا على يد أبيه بالمعرة ويد محمد بن عبد الله بن سعد النحوي بحلب وغيرهما من بني كثر وأصحاب ابن خالويه، ومنهم: أبو القاسم المبارك بن عبد العزيز صديق النكتي الذي بعث إليه أبو العلاء السبع وعشرون، وأما علمه بالحديث فإنه يحدث عن أبيه وجده، كما قرأ المعري القراءات بروايات متعددة وسمع الحديث بالشام على ثقاة وقال السمعاني: سمع الحديث اليسير وحدث به، كما أن الصاحب بن العديم قد عقد بابا وهو السادس من العدل تطرق فيه إلى ما وقع إليه من حديث أبي العلاء مسندا، وروى منه شيئا غير يسير، ورغم ذلك إلا أن علمه باللغة والنحو والأدب هو غايته القصوى، ويؤكد على ذلك "محمد بن راده اللغوي" حيث يقول: كان بالمشرق لغوي وبالمغرب لغوي في عصر واحد لم يكن لهما ثالث وهما: أبو العلاء وابن سيدهوروى "ابن العديم" عن تلميذه "التبريزي" أنه قال: «ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري.

وأما تبحره في علمي العروض والقوافي يظهر بكثرة في مقدمة "اللزوم" وفي رسالة له إلى "النكتي" وهي السابعة والعشرون، وله تآليف فيهما، كما أن للمعري إلماما واسعا بالفقه والفروع والمذاهب، وفي "رسالة الغفران" تأكيد على علمه بالملل والأديان وفرق المسلمين، كما أنه قد كان آية في معرفة الأخبار والتاريخ في الماضي والحاضر[2].

وقد ذكر في "تتمة اليتيمة" لأبي منصور الثعالبي في حديثه عن أبي العلاء المعري قال: «حدثني "أبو الحسن الدلفي المصيصي" الشاعر –وهو ممن لقيته قديما وحديثا في مدة ثلاثين سنة– قال: لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب:

---

[1]– عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، أبو العلاء المعري، ص 36.

[2]– ينظر،عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه ويليه رسالة الملائكة، ص 42–45.

رأيت أعمى شاعرا ظريفا، يلعب بالشطرنج والنرد، ويدخل في كل فن من الجد والهـــزل، يكنى أبا العلاء، وسمعته يقول: أن أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصـــر، فقد صنع لي وأحسن لي، إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء»[1].

وأما النجوم «فإنه مع عدم إيمانه بأحكامها يعرف ما لا بد للأديب منها، والظـــاهر أنه لم يكن يعرف غير العربية من اللغات، إلا أن واعيته البديعية حفظت له كل مـــا مـــر بسمعه من كلمات غير العربية، فتراه ينفث بها نفثا، فقد استخدم في أحد أشعاره كلمتـــين فارسيتين وهما: **السور**: وتعني دعوة الوليمة وكل سرور،**وآرا** بمعنى نعم.

وبينما كان أبو العلاء المعري يشتغل بالتعلم إذ فاجأه وفاة والده عبد الله، وكان مات بحمص سنة 377هـــ، ليلا أي حين ناهز صاحبنا خمسة عشر عاما من عمره فرثاه وذكر أنه كان شاعرا كإخوانه وأبنائه وأسلافه كما في "الضرام" و "معجم الأدباء"، فقال المعري في موت أبيه بيتا من الشعر يعبر فيه عن شوقه إليه، وفي ذلك دلالة على أنه أوتي الحكم صبيا وخلق ألمعيا ذكيا وشعره في الصبا راجع إلى ما تعلمه بانطاكية واللاذقية»[2].

ب- رحلاته:

- **رحلته إلى حلب:**لم يكن للمعري حاجة للتنقل أثناء حياة والده إلا بعد وفاته، فقد ســـافر إلى حلب، وقد ذكر رحلته هذه في قصيدة له إلى أبي إبراهيم محمد بن اســـحاق العلـــوي الحلبي، «يقول فيها:

ليت التحمل عن ذراك حلول والسير عن حلب إليك رحيل»[3].

---

[1]- طه حسين: تعريف القدماء بأبي العلاء، ص 3-4.

[2]- عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه ويليه رسالة الملائكة، ص 45-46-52.

[3]- محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره، ص 189.

وكان يتردد إلى حلب ويقيم بها عند أخواله، استأنف المعري سيره بطلب العلم فقد رحل إلى طرابلس الشام، وكان بها خزائن كتب موقوفة وأثناء رحلته إليها "مر باللاذقية، ونزل ديرا كان به راهب، له علم بأقاويل الفلاسفة سمع له أبو العلاء بعض الأقوال فحصل له به شكوك، وتتناقض الأخبار المروية عن تلك الرحلة فابن كثير لا يشير إلى مكانها، يذكر أنه التقى براهب فقط.

وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد، فلم تكن بطرابلس دار علم أيام أبي العلاء، وإنما قام بتجديدها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي سنة 472هـ، وقد ذكر ابن عمار أن بها تصانيفا لأبي العلاء منها: السجع السلطاني، الفصول والغايات، السادن، رسالة "الصاهل والشاحج".

وفي خبر آخر أنه رحل إلى أنطاكية وتردد إلى خزانة كتبها يحفظ ما فيها، قال "ابن منقذ" في ما نقل عن ابن العديم في الإنصاف: «كان بأنطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجل علوي، فجلست يوما إليه فقال: قد خبأت له غريبة ظريفة لم يسمع بمثلها ... صبي دون البلوغ ضرير يتردد إلي، وقد حفظته في أيام قلائل عدة كتب وسألت عنه فقيل لي: هذا أبو العلاء التنوخي من بيت العلم والقضاء والثروة والغناء إلا أن أبا العديم يرى أن في الحكاية وهم لأن أنطاكية كانت بأيدي الروم سنة 358 هـ، قبل مولد أبي العلاء، وتم فتحها سنة 477 هـ، بعد موت أبي العلاء بثمانية عشر عاما، ورغم ذلك فقد ذكر ابن العديم فصلا عن ذكاء أبي العلاء وفطنته وسرعة حفظه، منذ كان صبيا دون البلوغ، كما أن جماعة من أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير، فسافر أكابرتهم لينتظروه ويمتحنوه في الشعر، فكل واحد منهم ينشد بيتا ويرد عليه المعري بيتا من حفظه على

قافيته حتى نفذ حفظهم، وبقي المعري ينشد أبياتا من نظمه على قافية بيتهم حتى قطعهم جميعا[1].

- رحلته إلى بغداد:

كانت بغداد في عهد أبي العلاء «عاصمة الخلافة الإسلامية، ومقر الأشراف وملتقى الأمم من عرب وعجم، ومجمع العلماء، والأدباء والرواة، والمترجمين والمعربين وزهرة الدنيا في حضارتها ونظارتها، وفيها من مجالس العلم والأدب والمناظرة والوعظ ما ليس في غيرها، وكان كل إنسان يهوي أن يلم بها التماسا للعلم أو الرزق أو الشهرة أو تقربا من الخلافة أو ما شاكل ذلك من الأسباب والأماني، وكانت بها خزائن كتب كثيرة منها: مكتبتان عامتان إحداهما: بيت الحكمة والثانية مكتبة سابور، وكان بها غير هاتين المكتبتين كثير من المكاتب الخاصة منها مكتبة أبي الحسين عبد العزيز بن براهيم المعروف باسم: ابن حاجب النعمان»[2].

لعل رحلات أبو العلاء المعري التي رحلها إلى أمهات بلاد الشام التي اختارها بعد وفاة والده فقد سافر إلى حلب كما ذكرناه سابقا وعند رجوعه إلى المعرة ضاقت به الدنيا ماديا ونفسانيا فأحب أن يزور بغداد، ولم تسلم هذه الناحية من اختلاف في الأقوال وتضارب في الآراء: فعد ابن العديم أكثرها، ثم قال: «رحل إلى بغداد لطلب العلم والاستكثار منه والاطلاع على الكتب في بغداد ولم يرحل لطلب دنيا ولا رفد»[3].

كما ذكر القفطي الذهبي وغيرهما أن «عاملا أو أميرا أو نائب حلب عارض أبي العلاء في وقف له فسافر إلى بغداد متظلما شاكيا ولم يعين أحد منهم ذلك العامل أو النائب في ذلك العهد، ولا في أي سنة وقعت المعارضة ولا نوع ذلك الموقف.

---

[1]- ينظر، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، أبو العلاء المعري، ص 38-39-40.

[2]- محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره، ص 207-208.

[3]- عمر فروخ: حكيم المعرة، مطبعة الكشاف، بيروت، لبنان، ط 2، 1327هـ، 1948م، ص 18.

وذكر الأستاذ الميمني أسبابا كثيرة لرحلته، منها: دار الكتب ولقاء العلماء والإفـــادة والاستفادة لهم ومنهم، حيث قال في رسالته إلى خاله أبي القاسم عند رجوعه من العراق: « وقد فارقت العشرين من عمري ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراق ولا شامو الذي أقدمني لتلك البلاد مكان دار الكتب بها»[1].

وأما طلبه للعم والأدب والمال معا وما شاكل ذلك في مختلف جوانب الحياة، فقـــد صرح في مواطن من كلامه نقية له والتبرء منه ويظهر ذلك جليا في قوله: «وأحلف مـــا سافرت أستكثر النشب ولا أستكثر بلقاء الرجال، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشـــاهدت أنفس مكان لم يسف الزمن بإقامة فيه»[2].

رحل المعري كما ذكر في "نزهة الألباب للأنباري" أنه «سافر إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ودخلها سنة تسع وتسعين وأقام بها سنة وتسعة أشهر، ولزم منزله بعد منصـــرفه من بغداد سنة أربعامائة، وسمى نفسه رهين المحبسين»[3].

وقد خالفه "ابن الجوزي" في تاريخ سفره إلى بغداد فقال: «أنه دخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وأقام بها سنة وسبعة أشهر ووافقه في لزومه منزلـــه وتســـميته نفســـه "رهين المحبسين"»[4].

ذكر المعري في رسالته إلى أبي القاسم «أن جملة معـــدات الســـفر مـــن الســـفينة والمطية كانت منه وكان أخوه أبو طاهر قد تقدم إلى معارفه ببغداد في التوصـــية بـــأبي العلاء وقد ذكر:وما هبطت في طريقي واديا ولا فرعت جملا ولا حملتني سفينة ولا ذلت

---

[1]- محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره، ص 211-213.

[2]- أبو العلاء وما إليه ويليه رسالة الملائكة، ص 80.

[3]- طه حسين: تعريف القدماء بأبي العلاء، ص 17.

[4]- المرجع نفسه، ص 19.

لي مطية إلا بمن الله سبحانه ومنه سيدي وعنايته وقد علمت أنه يعمل ذلك معي لا يريد جزاء ولا شكورا»[1]، وكانت طريقه إليها محفوفة بالمصاعب والعراقيل إلا أنه تجاوزها.

لا يحدثنا التاريخ بشيء مفصل عن دخوله إلى بغداد ولقاء الناس له واحتفالهم به، إلا أن دخول رجل من أهل العلم لمدينة بغداد خبر لا يكاد يعلمه الناس حتى ينسلوا إلى زائرهم من كل وجه ليهدو إليه الكرامة وليختبروه ويبتلوا علمه، فلا شك أنهم سعوا إليه، فبهروا به ذاك أنه ذو علم جم وفضل كثير فرحبوا به وخلطوه بأنفسهم، كما قال أبو العلاء في إحدى رسائله إلى خاله أبي القاسم بعد رجوعه إلى المعرة يقول فيها: ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد، فقد أفردوني بحسن المعاملة وأثنوا علي في الغيبة، وأكرموني دون النظراء والطبقة[2]،أما عن طريقة تلقيه للعلم بها«فالمعري لم يجلس مجلس التلميذ من أحد وإنما كان يسعى إلى دروس العلماء ومجالسهم كما يسعى الند إلى الند والنظير إلى النظير»[3]. وكان يتردد إلى مكتباتها من أجل التزود بالعلم كما ذكرناه في سبب زيارته لبغداد.

كما ذكرنا سابقا أن حياة المعري مليئة بالمصاعب بفقدانه البصر إلى الرابعة من عمره، وأباه ولم يعد الرابعة عشر فغادر لبغداد لطلب العلم والرغبة في العيش الكريم فعزم على البقاء بها إلى آخر الدهر، إلا أن سببين اثنين صرفاه عن ذلك ألا وهو: الفقر ومرض أمه، إذ يقول في قصيدته التي بعث بها إلى أبي القاسم التنوخي:

«أثارني عنكم أمران والدة لم ألقها وثراء عاد مسفوتا»[4].

---

[1]– عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه، ص 84-85.

[2]– ينظر، طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، ص 122.

[3]– المرجع نفسه، ص 125.

[4]– طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء: ص 129.

تلقى المعري طعنة جديدة بعد وفاة والده ألا وهي وفاة أمه، فكان لهذا الخبر أثر عميق في نفسه، فقد كان برا محب لها، «توفيت وهو ابن السابعة والثلاثين عاما إلا أشهرا»[1] في طريق عودته إلى المعرة، «لما سمع أهل بغداد بعزم المعري على السفر حتى ارتاعوا له وألحوا في نهيه عنهم وبذلوا له الأموال ورغبوه في ألوان النعمة فأبى ذلك كله، وكأن نفسه قد انصرفت عن الدنيا أتم الانصراف، فلم يبق إلا من يمضي لما أراد من العزلة، فعاد لموطنه معرة النعمان ولم يمنعه هذا من أن يحزن على بغداد، فحزن حين فارقها حزنا شديدا أبقى منه ندوبا في قلبه، ولزمه الندم عليها طوال حياته، ولقيت دواوينه ورسائله حظا غير قليل من الشعر والنثر في الحزن على بغداد، فمن ذلك وداعه لها حين فارقها في قصيدة جديدة في "سقط الزند" يقول فيها:

أودعكم يا أهل بغداد والحشا على زفرات ما ينين من اللذع»[2].

«ارتحل أبو العلاء المعري عن بغداد لست بقين من رمضان لسنة أربعمائة، كما تنطق بذلك رسالته إلى خاله أبي القاسم، فسلك طريق الموصل، ولقي فيه ألوانا من الخوف حتى انتهى إلى بلده»[3].

5- موعد وسبب عزلة أبي العلاء المعري:

أجمع أبو العلاء «على اعتزاله الناس وانفراده عنهم، وهجر بهذه الفكرة وهو ببغداد، كما يتبين ذلك في رسالة كتبها إلى علوي يقول فيها: «وقد كنت عرفته بالعراق، ما عزمت عليه من انفردا، يحجز عن المراد، ووجدت الوالدة رحمها الله، فقد سبق بها القدر إلى المدر، فأتت النية بالمنية، فانطويت على يأس ومجانبة للناس، وفيها يقول:

---

[1]- عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه، ص 133.

[2]- طه حسين، المرجع السابق، ص 130-134.

[3]- المرجع نفسه، ص 120.

«ولما فاتني المقام بحيث اخترت أجمعت على انفراد يجعلني كالضبي في الكناس، ويقطع ما بيني وما بين الناس إلا من وصلني الله به وصل الذراع باليد والليلة بالغد »[1].

وكتب إلى أهل المعرة كتاب مقدمه من بغداد ولم يصل إليهم، وقد رسم في هذا الكتاب خطته التي يسير عليها مدة إقامته بين ظهرانهم ويخبرهم فيها عما أجمع عليه من العزلة وينهاهم عن زيارته ويبين لهم السبب الذي رحل من أجله إلى العراق وما لقيه فيها.

مما يقول في هذا الكتاب: « وودعت الشيبة فضمت وحلبت الدهر أشطره وجربت خيره وشره، فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروي من سانح النعام، وما ألوت نصيحة لنفسي ولا قصرت في اجتذاب المنفعة إلى حيزي فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه ...»[2].

6- شيوخه:

«يكاد يكون أبو العلاء أستاذ نفسه قبل أي أستاذ آخر فلم ير مستمعا إلى من يأخذ عنهم فحسب بل مناقشا ومحاورا، سوى أبيه وأمه وجده وجدته وأخيه فقد أخذ عن هؤلاء أخذ الراهب الخاشع المستوحي، ينقل من معينهم رحيقا دينيا صافيا وتربية عالية تتناسب وشرف منزلته وكريم محتده وتتلاءم مع ما كان عليه من سمو نفس وعلو همة وطموح لا حدود له /.../، أما مشايخه ومقرؤوه القرآن فكانوا جماعة ممن شهروا بالقراءات السبع، ورواية الحديث أخذها على أبي زكريا بن مسعر المعري وأبي الفرج عبد الصمد الضرير

[1]- محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره، ص 282.

[2]- محمد سليم الجندي: المرجع السابق، ص 282-283.

الحمصي والقاضي أبو عمر عثمان الطرسوسي وسواهم من رواة الحديث الثقاة في المعرة وحلب»[1].

ذكر "ابن العديم" أن أبا العلاء أخذ الحديث عن أبيه أبي محمد، وعن جده سليمان وعن أخيه أبي المجد، وعن جدته أم سلمة وعن زكريا يحي بن مسعر، عن أبي الفتح محمد بن الحسن وعن أبي الفرج الضرير الحمصي، وعن أبي بكر محمد بن عبد الرحمان، وعن أبي عبد الله محمد بن يوسف، وعن القاضي أبي عمر وعثمان الطرسوسي قاضي معرة النعمان، وروى عن أخيه أبي الهيثم شيئا من شعره، وخرج من حديثه سبعة أجزاء رويت عنه.

كما قرأ اللغة والنحو في المعرة على أبيه وأبي بكر النحوي، ودخل حلب صبيا وقرأ بها على محمد رواية أبي الطبيب، ونقل القفطي عن "الخطيب التبريزي" أنه قال: كنت قرأت "غريب الحديث" لأبي عبيد على أبي العلاء سنة 445هـ، قال: قرأ علينا سنة 385 هـ، كتاب "غريب الحديث" القاضي أبو عمرو عثمان الكوجي، وذكر أن سمعه من أبي عمير، وسمعه أبو عمير من علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد، وذكر القفطي أيضا أنه أخذ اللغة عن قوم من بلده كبني كوثر، ومن يجري مجراهم من أصحاب ابن خلويه وطبقته.

هؤلاء عرفناهم من شيوخه في بقية العلوم، وزعم القفطي وغيره أنه ذهب إلى طرابلس واللاذقية وأخذ العلم عن راهب وزعم "ابن العديم" أنه سافر إلى بغداد للاستكثار من العلم فأخذ بها عن علي بن عيسى الربعي وأبي أحمد عبد السلام البصري، وأبي علي عبد الكريم النحوي اللغوي، وزعم "السيوطي" أنه سمع من عبد السلام البصري في بغداد، وزعم صاحب "الضرام" أنه تلمذ علي عبيد الوهاب بمن نصر المالكي، وقال أبو الفداء

[1]- خليل شرف الدين: أبو العلاء المعري، ص 54-55.

وابن الشحنة في "روض المناظر":إنه لم يتلمذ لأحد أصلا، وجميع هذه الأقوال قائمة على الظن والوهم، والأصح أنه أكمل تعليمه على يد مجموعة من الشيوخ من خلال قوله: «وقد فارقت العشرين من عمريوفي هذا دلالة على أنه لم يرحل بعد العشرين لطلب العلم، فقد أتم تعلمه في المعرة على يد أبيه وبعض علمائها، وقوله في رسالته إلى أبي نصر صدق الفلاحي":وكيف يتأدى العلم إلي وأنا رجل ضرير ونشأت في بلد لا عالم فيه وهذا يدل على قلة العلماء والعلم في بلده وهذا من باب المغالاة في تواضعه[1].

وبعد سن العشرين أكمل المعري تعليمه وحده، فكان أستاذ نفسه، ومما ساعده في ذلك قوة ذاكرته، فقد بكر في الحفظ والتخزين، فذاكرة الضرير كما سبق وأن ذكرنا أصبح من غيرها، والسبب في ذلك عدم تشبب الباصرة لديه.

7- تلاميذه: قرأ على أبي العلاء ببغداد والمعرة كثيرون واشتهر جماعة منهم بالاختصاص به والانتساب إليه في العلم كأبي المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهري وأبي تمام الأنصاري، والخليل بن عبد الجبار القزويني، وممن قرأ عليه ببغداد أيضا المشهور بابن فورجة البروجردي وقد ذكر ذلك السيوطي [2]، «وأبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأسدي المالكي فقد روى السلفي جملة من الأشعار والأخبار عن أبي العلاء، وهو راوي السقط وكثير من اللزوم، وأبو الفضل محمد الدرامي الوزير البغدادي، لقي المعري بالمعرة وقرأ عليه شيئا وأوصله إلى المغرب والأندلس وأبو تمام غالب بن عيسى الأنصاري الأندلسي وأبو القاسم عبد الدائم بن مرزوق بن خير القيرواني، روى عنه السقط أخو ابن السيد البطليوسي وأبو الحسن علي بن محمد كما قال أبو بكر، وأبو الحسن

[1]- ينظر، محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره، ص 185-188.

[2]- ينظر، أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعري، لجنة التأليف للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، د ط، 1309هـ-1940م، ص 19-20.

علي بن همام تلميذه، رثاه بأبيات ميمية تأتي في محلها، ومن رواة شعره "شيخ الإسلام"، أبو عثمان اسماعيل الصابوني وآخرون»[1].

«ومن أشهر تلاميذه أبي العلاء: أبو زكريا يحي بن علي الخطيب التبريزي، صاحب المصنفات النفيسة والسبب في رحلته إلى أبي العلاء أنه تحصل على نسخة من كتاب التهذيب للأزهري، في اللغة في عدة مجلدات وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة فدلوه على أبي العلاء، فجعل الكتب في مخلاة وحملها على كتفه، من تبريز إلى المعرة»[2]، كيف لعالم وأديب بارع في الشعر والنثر أن لا يرغب الطلبة في الأخذ من بحر علمه، فثقافة أبي العلاء المعري جعلت الطلاب يتهافتون عليه من أجل تنمية قدراتهم وملكاتهم.

8- مؤلفاته:

ورد في أنباء الرواة على أبناء النحاة للقفطي قول الشيخ أبو العلاء رضي الله عنه وهو: «لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده، إلى أن اضطر إلى غير ذلك فأمليت أشياء تولى نسخها الشيخ "أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم" أحسن الله معونته، ألزمني بذلك حقوقا جمة وأيادي بيضاء لأنه أفنى في زمنه ولم يأخذ عما صنع ثمنه والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء»[3].

روي "ياقوت" و"القفطي" و"الصفدي" و"الذهبي" «ثبت لما ألف "أبو العلاء" من الكتب المنظومة والمنثورة في العلوم والآداب ولكن النثر اليسير من هذه الكتب هو الذي بقي لنا فأما أكثرها، فقال القفطي الذهبي: أنه باد ولم يخرج من المعرة وإنما أتى عليه

---

[1]- عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه ويليه رسالة الملائكة، ص 159-160-161-163-164.

[2]- المرجع السابق، ص 20-21.

[3]- طه حسين: تعريف القدماء بأبي العلاء، ص 38.

تخريب الصليبيين لها وتحريقهم لما فيها وقد أحصوا هذه الكتب فإذا هي خمسة وخمسون كتابا في أكثر من أربعة آلاف كراسة، تتناول اللغة وفنونهـــا والأدب وألوانـــه، والـــوعظ وأنواعه، وكثير من هذه الكتب لم يكتبه أبو العلاء إلا حين طلبه منه بعض الناس، ومنعه الحياء من رده، وقد يسر لأبي العلاء رجل يعرف بالشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن هاشم فكتب عنه ما أملى ولم يأخذ منه أجرا، فشكر له أبو العلاء ذلك في أول الثبت الذي وضعه لكتبه وألف لابنه كتابين أحدهما سماه "المختصر الفتحي" والآخر "عون الجمل" كما تبين ذلك من خلال قول أبي العلاء، وكان "عون الجمل" آخر ما أملى من الكتب كما نص على ذلك ياقوت[1]، ومن أسماء الكتب التي صنفها الشيخ أبو العلاء أحمد بن عبد الله بـــن سليمان، رحمه الله وعفا عنه وهي على ضروب مختلفة فمنها ما هو في الزهد، العظات، وتمجيد الله سبحانه، من المنظوم والمنثور، فمن ذلك:

- الكتاب المعروف بـــ "الفصول والغايات" وهو كتاب موضوع على حروف المعجم مـــا خلا الألف.

- كتاب أنشئ في غريب هذا الكتاب وما فيه من اللغة، وهو كتاب مختصر لقبه "السادن".

- وكتاب آخر لطيف، مقصور على تفسير اللغز، لقبه "إقليد الغايات".

- وكتاب يعرف "بالأيك والغصون" وهو كتاب كبير يعرف بكتاب الهمز والردف.

- وآخر موسوم بـــ: "تاج الحرة" وهو في عظات النساء.

- وكتاب سميته "خطب الخيل" وآخر اسمه "خطبة الفصيح".

- وكتاب يشرح فيه ما جاء في هذا الكتاب من الغريب، يعـــرف بـــــ: "تفســـير خطبـــة الفصيح".

[1]- طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، ص 208.

- وكتاب يعرف بـــ: "لزوم ما يلزم".

- وكتاب فيما يتعلق بهذا الكتاب اسمه "زجر الناتج"

- وكتاب يتعلق به أيضا تسميته "نجو الزجر".

- وآخر يشرح فيه ما في كتاب "لزوم ما يلزم" من الغريب باسمه "راحة اللزوم".

- وكتاب يعرف بـــ "سجع الحمائم".

- وآخر يعرف بـــ : سقط الزند".

- وكتاب يعرف بـــ "السجع السلطاني" وآخر يعرف بـــ "رسائل المعونة"»[1].

- وآخر موسوم بـــ "دعاء الأيام السبعة".

- ومن رسائله: "رسالة الملائكة"، "الرسالة السندية"، "رسالة الغفران"، "رسالة الفرض" [2].

- وكتاب يعرف بـــ "رسالة الساهل والشاحج" يتكلم فيه على لسان فرس وبغل، ومقـــداره أربعون كراسة»[3]. وهو محط بحثنا ودراستنا.

9- شيخوخته:هرم أبو العلاء وأصابته الشيخوخة ولكننا لا نعرف أنها أضعفت ملكة من ملكاته العقلية والخلقية، وإنما قضى الرجل حياته ثابت النفس، راجح الحلم، مصيب الفكر، قوي العقل، صادق الذوق، معتدل المزاج إلى أن أصابه المرض الذي مات فيه، علـــى أن أبا العلاء ومن شيخوخته في رسالة كتبها إلى أبي الحسن محمد بن سنان، وقد أنبأه برغبة السلطان إليه في اختصار كليلة ودمنة، فقال بعد كلام كثير: «وأحسبه –أدام الله قدرتـــه– يحسبني على ما يعهد من القوة والصبر، ولست كذلك، الآن على السن، وضعف الجســـم

[1]– طه حسين: تعريف القدماء بأبي العلاء، ص 38–46.

[2]– ينظر،عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي:أبو العلاء وما إليه يليه رسالة الملائكة، ص 198–199.

[3]– المرجع السابق، ص 45.

وتقارب الخطر وساء الخلق، وعطلت رحى لم تكن تجعجع ولكن تهمس، كنت أقصر طحنها على نفسي، وأتقوى به دون غيري، ولم يكن لها ضمان، ولكن فجع بها الزمان، ولم يبقى إلا أن يخلو مكانها العامر، فيصبح كأنه المحل الدامر، فأما المنفعة بها فقد انقضت وانقرضت، وإن تشبه بها في الظعن أخواتها، صار لفظي من أجل ذلك شيئا، وجعلت سبن الكلمة شيئا، فلم يفهم مني سامع ما أقول، فإذا قلت: العسل، مشى الذئب، ظن أني أقول، العشل بالشين المعجمة، ولا أعلم أن في كلامهم هذه الكلمة، وإنما هذه الرحى وأرتابها في التتابع إلى الرحلة، كما أنشد أبو زيد سعيد بن أوس:

يا رئة العير رديه لوجهته لا تطغي فتهيجي الحي للظعن

فإن وقع يوما من الدهر إليه شيء مما أمليه، فوجد فيه السيئات شيئات، فليعلم أن ذلك كما ذكرت، وأن الذي كتب سمع ولم يفهم.

فنرى أن الرجل في شيخوخته لم يضعف ولم يختل، ولم يزد إلا متانة ورصانة وثباتا.

قال القفطي: وقد تنبأ بطلان الطيب بوفاة أبي العلاء قبل موته بقليل وكان ابن بطلان يألف أبا العلاء، وكان بالمعرة إذ ذاك، فحدثه بعض الطلبة أن أبا العلاء قد أملى عليهم شيئا فغلط فيه، فتنبأ ابن بطلان بأن ذبالته قاربت الذبول، لأن من كان كأبي العلاء في قوة العقل وذكاء القلب، وحصانه، الرأي، لا يدركه الخطأ فيما يملي، إلا إذا اضطربت قواه، وفسد مزاجه»[1].

نستنتج أن أبا العلاء المعري قد عمر طويلا وجرب الحياة خيرها وشرها وعلم طبائع الناس وحكم عليها بالنفاق والكذب والخيانة، فاضطر إلى أن يعزل نفسه بعيدا عنها

[1]– طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، ص 154.

حتى لا يتأثر بتلك الطباع وقد كبر هذا الأديب وهرم دون أن تفسد ملكاته العقلية والخلقية نتيجة لمحافظته على نفسه في مراحل شبابه.

10- وفاته:

اختلفت كلمة القوم في يوم وفاته، قيل: « ليلة الجمعة، وقيل: يوم الجمعة ثاني ربيع الأول سنة 449 هـ، وقيل: في ثالثه، وقيل: في الثاني عشر منه، وقيل: في الثالث عشر منه»[1]، والأصح أنه يوم الجمعة.

ذكر "الخطيب البغدادي" في "تاريخ مدينة السلام" أنه «مات يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة»[2]، كما أكد ذلك السمعاني في الأنساب أنه «مات يوم الجمعة في الثالث عشر من ربيع الأول سنة 449 هـ، بمعرة النعمان»[3].

يقول "ابن الأنباري" في "نزهة الألبا": «وتوفي يوم الجمعة لثلاث عشر من ربيع الأول، سنة تسع وأربعين وأربعمائة، في خلافة القائم بأمر الله تعالى»[4]، قدمنا فيما سبق أن المعري ولد في ربيع الأول سنة 363 هـ، وذكرنا هنا أن وفاته في ربيع الأول سنة 449 هـ، ومع الاختلاف في يومي الولادة والوفاة يكون مجموع عمره 86 سنة تقريبا، ومن بين وصاياه قوله في "الفصول والغايات" ص 79: أوصيكم إن نفعت الوصاة، إذا أسفيت على مورد جرهم وعاد، إلا يلج علي آس، ولا يكثر حولي العواد، ولا تبكين عندي بالية ولا يحس نابي في النداب.

---

[1]- محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره، ص 442.

[2]- طه حسين: تعريف القدماء بأبي العلاء، ص 7.

[3]- المرجع نفسه، ص 14.

[4]- المرجع نفسه، ص 17.

إذ يحث المعري هنا أهل قبيلته على عدم البكاء على قبره، وله وصايا أخرى يأكد فيها على اتباع سيره وآراءه»[1]. وبهذا فإن التاريخ الصحيح لوفاة المعري هو يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الأول لعام 449 للهجرة.

ثانيا: الكتابة على ألسنة الحيوانات:

الكتابة على ألسنة الحيوانات جنس أدبي ذو طابع خلقي وتعليمي احتل مكانة مرموقة في نفوس الشعوب منذ أقدم العصور، فمن من لا يعرف كليلة ودمنة لـ "عبد الله بن المقفع"، وهو كتاب يضم قصصا متنوعة، أبطالها من الحيوانات، الأسد فيها هو الملك والثور خادمه.

«تسمى القصة على لسان الحيوان في اللاتينية Fabula أي الحكاية أو الخرافة، وأصبحت هذه الكلمة في الفرنسية والانجليزية Fable وباليونانية aplogos، أي حكاية ذات مغزى خلقي، واسمها الديني المسيحي على حسب الأنجايل parabola ومعناها في الأصل وضع شيء بجانب شيء، أي الموازنة بينهما ومقاربة شيء بشبيهه وصاحب الفهرسة يسميها في العربية الخرافة.

والخرافة مرادف لأصل معنى الكلمة اللاتينية السابقة fabula التي أصبح معناها الحكاية الرمزية وهي حكاية ذات طابع خلقي تعليمي في قالبها الأدبي الخاص»[2]. هذا في معناها اللغوي، إذن فهي تنحو منحى الرمز.

وأما في المعنى الاصطلاحي: فهي حكاية ذات طابع خلقي تعليمي في قالبها الأدبي الخاص، وحكايات الحيوان تنشأ فطرية في أدب الشعر قبل أن ترتقي من الحالة الشعبية

---

[1]– محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره، ص 441–442.

[2]– محمد غنيمي هلال: دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، د ط، د ت، ص 68.

إلى المكانة الأدبية الفنية، يرى بعضهم أنها يونانية الأصل كما عرفت في حكايات "إسيوبوس"، على حين يرى آخرون أن الهند أسبق لهذه الحكاية من اليونان في كتاب "جاتاكا" وآخرون يرجعونها في الحكايات المصرية على لسان الحيوان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، مثل قصة "السبع والفأر"[1].

وقد وضع أبو العلاء المعري عددا من الكتب في هذا المجال من بينها: "القائف"، "خطب الخيل"، "سجع الحمائم" و "أدب العصفورين" فقدت ولم يبق منها إلا شذرات من القائف إضافة إلى كتاب رسالة "الصاهل والشاحج"[2]، وسنقوم بدراسة الإشاريات بأنواعها ومتضمنات القول والفعل الكلامي والاستلزام الحواري لرسالة "الصاهل والشاحج" في موضع آخر من دراستنا.

[1]- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط 9، أكتوبر، 2008، ص 148-149.

[2]- ركان الصفدي: الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري، وزراة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، سوريا، د ط، د ت، ص 152

الفصل الأول:

مصطلحات

مفاهيمية

أولا: تعريف التداولية

1- الدلالة اللغوية:

التداولية منهج يهتم بدراسة اللغة في الاستعمال ويكشف عن معنى المتكلم ومقاصده في السياق يأخذ مفهومها عدة تعريفات في سياقه اللغوي والاصطلاحي وذلك حسب فكر وتوجه كل باحث.

تتعدد العبارات المطابقة لمصطلح التداولية من الناحية اللغوية ومنها: «التداولية أو التداوليات أو البراغماتية أو البرجماتية أو الوظيفية أو السياسية، دوال متواترة في اللغة العربية في مقابل كلمة Pragmaticus اليونانية المشتقة من Pragma وتعني الحركة أو الفعل Action ويبدوا أن مصطلح التداولية يظل الأكثر استعمالا وشيوعا بين الباحثين، وهو مصطلح مركب من وحدتين إحداهما معجمية "تداول" والأخرى صرفية "ية" دالة على مصدر صناعي»[1]. إلا أن التداولية هي أشهرها وأكثرها شيوعا.

لمصطلح التداولية عدة ترجمات «ففي اللغة الفرنسية: يقترن مصطلح التداولية pragmatique بالمعنيين التاليين "محسوس" و"ملائم للحقيقة"، أما في الانجليزية وهي اللغة التي كنيت بها أغلب النصوص المؤسسة للتداولية، فإن كلمة : «pragmatic» تدل في الغالب على "ما لاه علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية"، ومن بين المنظرين الأعلام الممثلين للتداولية "أوستين" و"سورل" وعالم الاجتماع هو "غوفمان" و"غمبرز" وهو عالم مختص في اللسانيات الاجتماعية الأثنولوجية، إضافة إلى هؤلاء نجد مدرسة "بالو ألتو" إذ تتموقع التدوالية عندهم في الحقل الفلسفي وهو حقل فسيح بدوره»[2].

---

[1]- جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط 1، 1437هـ، 2016م، ص 13.

[2]- فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر: صابر الحباشي، دار الحوار، سوريا، ط1، 2007، ص 17-18.

وبالعودة إلى التراث العربي تحديدا في مقاييس اللغة، نجد في مادة «"دول": الدال والواو واللام أصلان: أحدهما يدل على تحول شيء من مكان إلى مكان على ضَعْف واسترخاء، فأما الأول فقال أهل اللغة: إن دال القوم، إذ تحولوا من مكان إلى مكان، ومن هذا الباب تداول القوم الشيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض، والدَّولة والدُّولة لغتان، يقال: بل الدُولة في المال والدولة في الحرب، وإنما سمي بذلك من قياس الباب، لأنه أمر يتداولونه فيتحول من هذا إلى ذاك، ومن ذاك إلى هذا.

وأما الأصل الآخر فالدَّويل من النَبْت: ما يبس لمامه، قال "أبو زيد": ال الثوب يدول، إذا بلى، وقد جعل ودُّه يدول أي يبلى، ومن هذا الباب إن دال بطنه أي استرخى»[1].

وقال الزجاج: «الدُولة اسم الشيء الذي يتداول والدَّولة الفعل والانتقال من حال إلى حال.

وقال أبو عمر بن العلاء: الدُولة بالضم في المال، والدَّولة بالفتح في الحرب.

وخالفهما "عيسى ابن عمر" في قوله: أن كلتيهما تستعملان في الحرب والمال سواء

وقال الحجاج: تداولنا الأمر: أخذناه بالدُّول، وقالوا: دَوَاليك أي مداولة على الأمر، وقال "سيبويه": دالت الأيام، أي دارت، والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة، وقال "الفراء": تداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاورناه»[2].

ومن هذا المنطلق نستشف أن الجذر اللغوي من مادة "د.و.ل" يحمل معنى التحول والتبدل والتغير من حال إلى حال كما أن دلالة الكلمة تتغير بناء على الحركة الملازمة

[1]- ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ج 2، 1399هـ، 1979م، ص 314-315.

[2]-ابن منظور: لسان العرب، أدب الحوزة، إيران، مج 11، (د ط)، 1405هـ، ص 252- 253.

للدال وهذا التغير وعدم الاستقرار مماثل للتغير الذي يطرأ على اللغة إذ تتغير عبر الزمن وتنتقل عبر متكلميها (المتكلم–السامع).

وردت كلمة "د.و.ل" في القرآن الكريم بالضم في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ سورة الحشر، الآية7.

دُولَة: بمعنى يتداوله الأغنياء ولا يناله الفقراء.

وقال أيضا: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾سورة آلعمران، الآية 140.

جاءت "نُداولها" بالفتح في الآية الكريمة تحمل معنى: نصرفها وننقلها.

وإذا حاولنا رصد دلالة المدخل المعجمي "د.و.ل" في المعاجم العربية الحديثة، «اتضح لنا تقاطعها مع نظيرتها القديمة، في الدلالة على تبدل الأحوال وتغيرها، إلا أنها تنفرد ببعض الدلالة المستحدثة، وهو ما نكتشفه مع المعاني التالية: **أدال الشيء جعله متداولا، وداول كذا بينهم جعله متداولا، والمداولة في القضاء إجالة الرأي في القضية قبل الحكم فيها وداول كذا بينهم: جعله متداولا تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء.** فمن خلال هذا التحديد يتضح أن المدخل المعجمي "د.و.ل" أضحى يرتبط بالتداول التبادل المعمم، كما يتصل بالتحاور، ومنه المداولة، وتعني تقليب القضية لمعرفة وجوهها المختلفة قبل البت في الأمر، وهذا الفعل يقتضي الاستشارة وتبادل الآراء والأخذ بوجهات النظر

المختلفة»[1]، من خلال التعريفات اللغوية لمصطلح التداولية نجد أنها ترتبط في الغالب بمعنى التحول والتبدل من حال إلى حال.

2- الدلالة الاصطلاحية:

تناولت الدراسات السابقة اللغة بمختلف مستوياتها الصوتية، الصرفية، النحوية، البلاغية، والمعجمية، وعجزت عن تفسير جوانب أخرى كاستعمالها والعلاقة بين متكلمها وسامعها، وكان هذا الجانب من اختصاص الدرس التداولي إذ يهتم بالبعد الاستعمالي أو الانجازي للكلام، ويأخذ بعين الاعتبار المتكلم والسياق، فبات من الضروري على الباحث إذن أن يكون ملما بجوهر الخطاب التداولي ليكون رصيدا لغويا ومعرفيا شاسعا.

والحديث عن التداولية وعن شبكتها المفاهيمية يقتضي «الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة: **كعلم الاجتماع ، علم النفس، وعلم الدلالة** لأنها تشي بانتمائها إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة كالبنية اللغوية وقواعد التخاطب والاستدلالات التداولية والعمليات الذهنية في الإنتاج والفهم اللغوي وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال»[2]، فمفهوم التداولية إذن مختلف باختلاف كل معرف لها وباختلاف فكره وتوجهه، فقد تعددت تعاريفها وتنوعت، ومنه نطرح الإشكال الآتي، **ماهي التداولية؟ وكيف عرفها العرب والغرب؟**

---

[1]- جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 14-15.

[2]- أحمد فهد صالح شاهين: النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، علم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2015، ص 9.

أ- التداولية عند العرب:

لا قيمة للمفردات أو العبارات بعيدة عن سياقها فلا بد من دراسة تلك المفردات والعبارات التي يوجهها المتكلم داخل السياق والظروف المحيطة به ومكان وزمان التخاطب وكل هذه الأمور من اهتمام التداولية، إذ تعد فضاء مفتوحا على مختلف العلوم والمعارف، كما تمثل محورا هاما في الدرس العربي وترتبط بالجانب الاستعمال للغة ومن الصعوبة الإلمام بتعريف مضبوط ودقيق للتداولية: «إذ تعددت التسميات العربية المقابلة للمصطلح PRAGMATIQUE، فقيل، البراغماتية والبرجماتية والبراجماتيك، وليس بين هذه الاصطلاحات فرق، يعدها نقلا حرفيا للكلمة الأجنبية، وقيل: **التداولية، المقامية، الوظيفة السياقية، الذرائعية، النفعية**»[1]، وهذا الاختلاف في التسميات راجع إلى تعدد وتنوع المنطلقات الفكرية لكل باحث والتربة التي ينشأ فيها، «وأول من وضع مصطلح التداولية من العرب في مقابل مصطلح البراجماتية فهو الفيلسوف اللغوي "طه عبد الرحمان سنة 1970»[2].

يبدأ طه عبد الرحمن بتحديد مفهوم التداولية ممن الناحيتين اللغوية والاصطلاحية، فمن الناحية اللغوية: «يدل الفعل تداول على معنى "النقل" و "الدوران"، فقولنا: تداول الناس كذا بينهم يفيد معنى تناقله الناس وتداوروه فيما بينهم، فـ "النقل" و "الدوران" يدلان بذلك في استعمالها اللغوي على معنى النقل بين الناطقين أو قل معنى "التواصل"، ويدلان في استعمالهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين أو "التفاعل"، فيكون التداول جامعا بين جانبين اثنين هما: "التواصل" و "التفاعل" فمقتضى التداول إذن أن يكون القول موصولا بالفعل، وأما من الناحية الاصطلاحية فينحى طه عبد الرحمان في جعله امتدادا

---

[1]- خليفة بوجادي: اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط 1، 2009، ص 65.

[2]- أحمد فهد صالح شاهين: النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، ص 10.

لمعناه اللغوي، يقول: «وعلى هذا فالتداول عندنا متى تعلق بالممارسة التراثية هو وصف لكل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل، بين صانعي التراث من عامة النـــاس وخاصتهم فالمقصود بالتداول إذن التواصل والتفاعل بين صانعي التراث، وهو هنا يأخـــذ من التداولية معناها الفلسفي»[1]، إذ يركز "طه عبد الرحمن" في تحديده لمفهـــوم التـــداول على فكرة الدوران وكيفية التواصل والتفاعل بين الناطقين وعملية إيصـــال المعلومـــة أو الفكرة من المتكلم إلى السامع، وكل ما يعتري هذه العلاقة من ملابسات وشروط تداوليـــة ثقافية للوصول إلى المعنى المراد من تلك العملية.

كما أن أوجز تعريف للتداولية وأقربه إلى القبـــول هـــو: «دراســـة اللغـــة فـــي الاستعمال، أو في النصوص Interation، لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها ولا يرتبط بالمتكلم وحده ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثـــل فـــي تداول اللغة بين المتكلم والمخاطب في سياق محدده مادي واجتماعي، ولغوي، وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما»[2]،وفي هذا التعريف تأكيد على أهمية السياق، فله أثر كبيـــر في تحديد دلالة الكلمة على وجه الدقة، وبواسطته تتجاوز كلمات اللغة حـــدودها الدلاليـــة المعجمية المألوفة لتفرز دلالات جديدة فتكون نفسية أو اجتماعية ويرتبط معنـــى الكلمـــة بثلاثة عناصر أساسية وهو: المتكلم، المخاطب والسياق للوصول إلـــى المعنـــى المـــراد إبلاغه.

يتصف مصطلح التداولية كما ذكر "المتوكل" بـــ: «الخفة والسلاسة»[3]وهو الـــذي صار مهيمنا على استعمالات الدارسين ومن أسباب عدم استقرار المصطلح العربي علـــى صيغة واحدة عدم استقرار مفهوم التداولية نفسه وموضوعها في تيار واحد، وتنوع الخلفية

---

[1]– أ.م. د ستار جبر حمود أعجري و م .م محمد حمزة إبراهيم، «المنهج التداولي في فكر طه عبد الرحمن»، مجلـــة كلية الدراسات الإنسانية، ع 2، 2012م، ص 174–175.

[2]– أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، ص 10.

[3]– خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 65–66.

الفكرية لكل باحث وكذا البيئة التي نشأ فيها والظروف الثقافية المحيطة بها، وقد أثنى "الجيلالي دلاش" على "المتوكل" هذا الوصف.

تهتم التداولية أيضا بـ: «دراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام، أي دراستها في سياقاتها الواقعية لا في حدودها المعجمية أو تراكيبها النحوية: هي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معينة لا كما نجدها في القواميس والمعاجم ولا كما تقترح كتب النحو التقليدية، ومن أمثلة ذلك: كلمة شكر في لسان العرب، بمعنى الشكر والعرفان، وفي استعمالاتنا اليومية تتجاوز الكلمة مجرد العرفان والإحسان إلى معان جديدة تتجاوز حدودها المعجمية الضيقة، فتدل مثلا على الرفض أو التهكم أو الضيق»[1]، نستنتج أن للسياق أثرا بارزا في تحديد معنى الكلمة وهذا العمل من اختصاص الدرس التداولي.

ب- التداولية عند الغرب:

كما تعددت التسميات العربية المقابلة لمصطلح التداولية واختلفت بسبب الخلفية الفكرية والثقافية للباحث، فقد تنوعت وتعددت عند الغرب «إذ تتداخل مع علوم أخرى مما جعل مجالها ثريا واسعا وعسيرا، وقد أتى بهذا الرأي العديد من الدارسين من بينهم مانقونو manghono إذ يقول: أنه من الصعب الحديث عن التداولية، لأن هذا التعبير يغطيه العديد من التيارات من علوم مختلفة تتقاسم عدد من الأفكار، واللسانيون ليسوا وحدهم المعنيون بالتداولية، بل تعني الكثير من علماء الاجتماع إلى المناطقة وتتجاوز اهتماماتها المتعلقة بالمعنى والتواصل، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني»[2]. فمجال التداولية حسب مانقونو إذن واسع وملم بجميع العلوم

[1]- بهاء الدين محمد مزيد: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي تبسيط التداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2010م، ص 18.

[2]- خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيله في الدرس العربي القديم، ص 63.

والمعارف، كما ذهب لنفس الرأي أيضا "فرانسواز أرمينكو" و"فانديك"، فالتداولية في تصريح لـ :"فرانسواز أرمينكو francois armengand "هي: «درس جديد وغزير إلا أنه لا يمل حدودا واضحة تقع التداولية كأكثر الدروس حيوية في مفترق طرق الأبحاث الفلسفية واللسانية ويؤكد "فان ديك fan dik" تاريخ اهتمام هذا العلم الذي بدأ تطوره على نحو صحيح منذ السنوات العشرين الأخيرة له خاصية التداخل مع عدة تخصصات أخرى، وقد حفزته علوم الفلسفة واللغة والأنثربولوجيا، بل علم النفس والاجتماع أيضا»[1]، وأقدم تعريف للتداولية تعريف "تشارلزموريس" سنة 1938م في كتابه: "أسس نظرية العلامات" حين قال: «إن التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه لعلامات»[2]، ففي تعريف "تشارلزموريس" للتداولية يؤكد إذن على أنها جزء من السيميائية وإحدى مكوناتها التي تهتم بدراسة العلاقات بين العلامات وبين مستعمليها، اي تحقيق العلاقة بين الفعل التواصلي بين مرسل ومستقبل، أي العلاقة بين المتكلم والألفاظ التي ينطق بها، فهو يستخدم الألفاظ حسب السياق المراد التعبير عنه وهذا من مهام التداولية والسيميائية.

حدد "تشارلز" موريس ما يترتب عن هذه العلامات حينما شرح أبعاد السيميائية الثلاث (علاقة العلامة بالموضوع: بعد دلالي، علاقتها بالناطقين: بعد تداولي، علاقتها فيما بينها: بعد تركيبي)، ومما ينبغي ملاحظته على هذا التعريف: الاهتمام بالبعد الدلالي وقد عده في الرتبة الأولى لأنه مرتبط بطبيعة العلامة ذاتها، ثم يعضده البعد التداولي، لأن العلامة لا تميز إلا عن طريق المتكلم الذي يحدثها، وتأخر البعد التركيبي لأنه ينبغي بالعلامة أن تكون لها دلالة ومداول قبل أن تركب[3]، يتضح أن الأبعاد السيميائية تتمثل

[1]– خليفة بوجادي:المرجع السابق: ص 64.

[2]– أحمد فهد صالح شاهين: النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، ص 9.

[3]– ينظر، خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 67-68.

إذن في ثلاثة أبعاد وهي: البعد التداولي، البعد الدلالي، ثم البعد التركيبي، ومن هذه الأبعاد الثلاثة تتحقق عملية الخطاب التواصلي.

وبالحديث عن التداولية ونشأتها نجد أنها ترتبط بعالمين اثنين هما "سورل" و"أوستين"«فقد وضع "أوستين" وتلميذه "سورل" نواة التداولية في حقل فلسفة اللغة العادية إذ طور من وجهة نظر المنطق التحليلي ومفهوم العمل اللغوي»[1]، نستنتج من خلال هذه المقولة: أن التداولية قد تشكلت وتبلورت على يد "أوستين" وتلميذه "سورل" حينما جعلاها مركز الخطاب اليومي، ففلسفة اللغة العادية عندهم ترى أن المشكلات الفلسفية التقليدية ناتجة عن تشويه أو نسيان ما تقصده الكلمات في الاستخدام اليومي، كما أسهم كل منهما في تطوير الأحكام التي يتم اتخاذها على العبارات، إذ تؤثر في محتواها، أما العمل اللغوي فقد ظهر على يد "أوستين" وتطور على يد "سورل" ويهتم بـ: المضامين والمقاصد التواصلية، فالجمل اللغوية لا تنقل مضامين مجردة وإنما تؤدي وظائف تختلف باختلاف المقام والسياق المستخدم فيها، وتوالت بعدهما التعريفات وتنوعت.

ذكرت "آن ربول Annerebole" و "جاك موشلار Mochllerjacque"أن التداولية:« يمكن أن تعرف بصفة عامة على أنها دراسة استعمال اللغة، في مقابل دراسة النسق اللغوي الذي يدخل بصيغة صريحة في اختصاصات اللسانيات، وعندما تتحدث عن استعمال اللغة، فإن هذا الاستعمال ليس محايدا، فالاشارات على سبيل الذكر لا يمكن أن تؤول إلا داخل سياقها التلفظي، كما أن الكلمات تدل في مناسبات كثيرة على معان تفوق ما تنوي التعبير عنه»[2]، إذ لا قيمة للمفردات والعبارات بعيدة عن السياق، فلا بد من دراسة المفردات والعبارات التي يوجهها المتكلم داخل السياق فهو الذي يحدد معناها، إذ يمكن أن تدل الكلمة الواحدة على عدة معان، من خلال الظروف المحيطة بها وزمان

[1]– فيليب بلا نشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 11.

[2]– جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 15-16.

ومكان التخاطب لذا فالتداولية كما ترى "آن ربـــولAnne rebole" و "جـــاك موشـــلار mochler jacque استعمال اللغة مقابل دراسة النسق، «كما عدد "جورج يول George udnyule" جملة من التعريفات للتداولية، حاول من خلالها رسم حـــدودها وامتـــدادها، إذ ذكر أن التداولية تعنى بدراسة المعنى كما يعبر عنه المتكلم (أو الكاتب) ويؤوله المســـتمع (أو القارئ)، وبالتبعية فإنها تهتم أكثر بتحليل ما يرميه إليه المتخاطبون من مخاطبـــاتهم، أكثر مما تعنى بما يحتمل أن تعبر عنه الكلمات أو الجمل نفسها، وعليـــه فـــإن التداوليـــة دراسة لمقاصد المتكلم»[1]، فالتداولية إذن لا تهتم بالعبارات والكلمات وإنما تهتم بدراســـة القصد من السياق إذ يقال: «التداولية هي دراسة ما يعبر عنه أكثـــر ممـــا تـــرتبط بمـــا يقال»[2]، وقد رصد للتداولية تعريف آخر، وهو: «أنها دراسة تهتم باللغة فـــي الخطـــاب، وتنظر في الوسميات الخاصة به، قصد تأكيد طابعه التخاطبي، وهو تعريف أتى بـــه أ.م، ديلروفركاناتي»[3]، تدرس التداولية إذن العلاقة بين المفردات وقائليهـــا، تهـــتم بطرفـــي الخطاب (المتكلم والمتلقي)، حيث تدرس اللغة أثناء عملية التواصل، ومن ثم فهي جـــديرة بأن تسمى: «علم الاستعمال اللغوي»[4]، نستنتج من خلال ما ســـبق أن التداوليـــة تمثـــل مصدرا هاما في الدرس اللغوي، إذ تلتقي مع مجموعة من العلوم وترتبط بمفاهيم متنوعة في اللغة والاصطلاح، فمن خلال التعريف اللغوي لها نستنتج أنها تحمل معنـــى التحـــول والتغير من حال إلى حال، أما في الاصطلاح فمفهومها يختلف باختلاف البيئة التي نشـــأ فيها المفكر والباحث والظروف الثقافية المحيطة بها، وتلتقي أغلبها في استعمال اللغة فـــي السياق ودراسة العلاقة بين المتكلم والسامع.

---

[1]- جواد ختام:المرجع السابق: ص 17.

[2]- المرجع نفسه، ص 17.

[3]- فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 18-19.

[4]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلامية» فـــي التـــراث اللســـاني العربي، ص 17.

ثانيا: نشأة التداولية:

تشكل التداولية درسا واسعا وغزيرا واتجاها جديدا في دراسة اللغة يبحث عن حل للعديد من المشاكل اللغوية التي أهملتها اللسانيات بعدما كانت تنعت بسلة مهملاتها، وقد مرت بمراحل متباينة في التأسيس لها، إذ انبثقت من التفكير الفلسفي وسرعان ما تجاوزته، وأول من أدخل معنى البراغماتية إلى الفلسفة "تشارلز بيرس charles sanders peice"، وطورها تلميذه "تشارلز موريس charlw.mouris "، وتوالت بعدهما الدراسات وتعددت وسنقوم بعرض وجيز لنشأة التداولية وتطورها، «فالباحث في جذور التداولية يجدها منبثقة غالبا عن الأبحاث اللغوية الفلسفية أو الدينية وثيقة الصلة بالمنطق على اختلاف توجهاتها ومشاربها، وتلك كانت سمة ميزت الدرس اللغوي عامة، عندما نظر الفلاسفة من أمثال: "هوسرل Endmend husserl" و "كارناب Carnap"، "فيتغنشتاين frntein"، وغيرهم إلى اللغة على أنها الأداة الأولى وربما تكون الأداة الوحيدة القادرة على التعبير لهم بصدق عن فهمهم لإنسانية الإنسان الذي يحيا فيه، وبذلك فاللغة بحسبهم هي فعل يؤثر في الواقع وتعدل في السلوك ويثير ردود الأفعال، ثم أتت التداولية بفكرها التجريدي وطالبت بضرورة انفصال اللغة عن الفلسفة، ولكي تدرس اللغة دراسة علمية، –دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها– بزعامة دي سوسير.

ثم يعيد البحث اللساني في منتصف القرن العشرين ارتباطه بالفلسفة فيستند إلى مقولاتها من جديد وهذا أسهم في تطور اللسانيات في عصرنا الحديث»[1].

أول من أرسى معالم التداولية الفيلسوف الأمريكي "تشارلز ساندرز بيرس" وطورها تلميذه تشارلز موريس «وكان السيد "تشارلز بيرس" أول من أدخل معنى البراغماتية إلى الفلسفة، فالكلمة مشتقة من الأصل اليوناني وهو براغما pragma وتعني

[1]– حسن خميس الملخ: التداولية ظلال المفهوم وآفاقه، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2015، ص 94–95.

العمل والتي منها أيضا كلمة practice، يمارس عملا، وهو كلمة practcal عملي، سنة 1878م، في مقالته بعنوان "كيف نجعل أفكارنا واضحة، يوضح في قول له أن معتقداتنا هي في حقيقة الأمر قواعد للعمل، ولتطوير معنى فكرة ما ينبغي علينا تحديد السلوك المناسب الذي تنتجه ومبدأ بيرس هذا إنما هو مبدأ البراغماتية»[1].

نخلص إلى أن التداولية قد تأسست على يد عالمين إثنين هما "تشالرز ساندرزبيرس" و"تشارلز موريس"، إذ يعتبر الفيلسوف بيرس من الأوائل الذين أحدثوا تطورا في المجال اللساني إذ ارتبطت التداوليةعنده بالمنطق والفلسفة حينما أدخل كلمة البراغماتية التي تعني استخدام اللغة في السياق الاجتماعي إلى الفلسفة، وهذه الكلمة ذات أصل يوناني مشتق من الجذر اللغوي براغما، إذ يحمل عدة معان منها: عمل ممارسة، عمل عملي وذلك في مقالة له بعنوان "كيف نجعل أفكارنا واضحة"، وفي هذا المقال يذهب بيرس إلى أن السياق هو الذي يحدد المعنى أي طريقة استعمال اللغة، وهذا المبدأ الذي اعتمده بيرس وإنما هو مبدأ البراغماتية.

ذكر بعض الباحثين أن الفيلسوف والمنطقي والرياضي "شارلز بيرس" charles sanderspeire(1839-1914م) «أول من استخدم البراجماتية pragmatics، وأنه واضعه والصواب أن "بيرس" عرف مصطلح البراجماتية من دراسة أعمال الفلاسفة التجريبيين والفيلسوف الألماني إيمانويل كانت Emmanuel (1724-1804م)، الذي جمع بين معطيات المنهج العقلي والمنهج التجريبي، وهو يميز بين البرامجماتي pragmatic، والعملي practical، وقد كان المصطلح مستخدما قبله في الفلسفة الواقعية، وقد ذكره بيرس في مراجعاته آراء الفلاسفة، وهذا لا ينفي أنه أول من استخدم pragmatics في علم اللسان، وهو يتناول علاقة العلامة أو الرمز بالمدلول أي بالشيء، وقد رأى أن السيميائية تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات، فالثابت أن

[1]- ويلم جيمس: البراغماتية، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط 1، 2014م، ص 53-54.

بيرس مؤسس علم العلامات (أو علم الإشارة أو علم السيمياء)، وقد تأثر فيه بالبراجماتية، فعرف بـــ: علـــم العلامـــات البراجمـــاتي (pragmatic semiotics , pragmatique sèmiotique) وقد حملت العلامة عنده طابعا شموليا متغيرا، وقد عـــدها كيانـــا ثلاثيـــا تتفاعل داخله العناصر التركيبية والدلالية والبراجماتية في إطار حركـــة دائمـــة تســـمى السيميوزيس Semiosis، وقد طوره الفيلسوف الأمريكي "تشـــارلز مـــوريس" charled mouris، فجعله علما عاما، واستحدث رموزا لبعض الأشياء، ووضع نظام الشفرة، وقـــد استخدم موريس المصطلح البراجماتي بمفهومه الاصـــطلاحي الخـــاص فـــي الدراســـات اللسانية في حديثه عن علاقة العلامات بمؤوليها في كتابه "أسس نظرية العلامات" الـــذي نشر عام 1938م»[1]، نستنتج إذن أن بيرس لا يعد المستخدم الأول لمصطلح البراجماتية pranatics فهناك من سبقه في استخدامه، إذ ظهر هذا المصطلح لدى علمـــاء الفلســـفة الواقعة وأعمال الفلاسفة التجريبيين، فقد توصل إلى هذا المصطلح بعد دراســـته لأعمـــال الفيلسوف "إمانويل كانت" صاحب المنهج العقلي، فالسبيل للوصول إلى الحقيقة عنده هـــو استخدام العقل إذ شك في كل العلوم إلا التي توافق العقل، كما ميز بين مصطلحين اثنـــين هما "العملي"، بمعنى واقعي وفعلي، "براغماتي": بمعنى تداولي، على الرغم من أن بيرس قد فاته فضل الأسبقية في استخدام المصطلح إلا أنه السباق في اســـتخدامه فـــي المجـــال اللساني أثناء تطرقه لموضوع العلاقة التي تجمع اللفظ بالمعنى، اللفظ هو الدال، والمعنـــى هو المدلول، وهذا ما يدرسه علم العلامات وهو علم يدرس أنســـاق العلامـــات والأدلـــة والرموز، سواء أكانت طبيعية أم صناعية، ظهر على يد بيرس وتأثر فيـــه بالبراغماتيـــة فعرف بـــ: علم العلامات البراغماتي أي علم العلامات التـــداولي، وحـــد بيـــرس أبعـــاد التداولية في ثلاثة أبعاد، بعد تركيبي وبراغماتي، ومن خلال هذه الأبعاد تتحقـــق العمليـــة

[1]– محمود عكاشة: النظرية البراغماتية اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبـــة الآداب القـــاهرة، مصر، ط 1، 2013، ص 10-12.

التواصلية في إطار سيرورة دائمة تسمى سيرورة العلامات (السيميوزيس)، وبلورها فيما بعد في كتابه "أسس نظرية العلامات".

أصبحت التداولية مجالا معترفا بها في الدرس اللغوي المعاصر في «العقد السابع من القرن العشرين بعد قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد هم : أوستين J.l.austin و سورل j.r.serle و جرايس h.p.grice (مع أن سورل وجرايس أتما تعليمها في كاليفورنيا)، وقد كان هؤلاء الثلاثة من مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية natual language والعادية ordinary في مقابل مدرسة اللغة الشكلية أو الصورية fornal language التي يمثلها كارناب carnap، وكانوا جميعا مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، وكان هذا من صميم عملهم، وهو من صميم التداولية أيضا، ومن الغريب أن أحدا منهم لم يستعمل مصطلح التداولية فيما كتب من أبحاث»[1]، أصبح الدرس التداولي محط دراسة وبحث على يد ثلاثة من الفلاسفة المنتمين لفسفة اللغة الطبيعية التي ترى أن أغلب المشاكل الفلسفة ناتجة عن سوء فهم أو معرفة الكلمات المستخدمة في الخطاب اليومي، وتقابل هذه المدرسة المدرسة الصورية أو الشكلية التي تعنى بالأغراض البنيوية لنص معين، إذ تدرسه دون أي اعتبار للعالم الخارجي، وكان اهتمام هؤلاء الفلاسفة منصبا حول طريقة إيصال المعلومة إلى المتلقي، أي التركيز على الجانب الاستعمال للغة وهذا المجال من اختصاص الدرس التداولي، وبالرغم من الأبحاث والجهود التي قدموها إلا أنهم لم يستخدموا مصطلح التداولية في أي بحث لهم.

أولى بدايات التداولية كانت مجرد مشروع، « ثم اكتسبت في مرحلة ثانية بعض الأهمية مع أبحاث أوستين وجرايس، وغدت اتجاها قائم الذات، فإن المرحلة المهمة في تاريخ التداولية تزامنت مع انفتاحها على العلوم المعرفية، والأبحاث المتعلقة بالذكاء

[1]– محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2002، ص 9-10.

الاصطناعي، وهي أبحاث غيرت الوجه العام للتداولية، وأعلنت ميلاد ما يعرف بالتداولية المعرفية Pragmatique contive مع نظرية الملاءمة theorie de pertinence لسبير برووسلن (1986-1989)، أما "ديكرو" فأضفى على التداولية بعدا دلاليا، حينما حاول التأسيس لتداولية مندمجة في الدلالة ضمن ما يعرف بنظرية الحجاج في اللغة إلا أن الصعوبات التي واجهتها نظريته دفعته إلى تبني أطروحة الباحثة ماريون كاربل، المعرفة بنظرية المجموعات الدلالية، وهي نظرية تتفتح على النظرية العامة لتعدد الأصوات، ومن هذا المنطلق لم يعد مرجع التداولية، في ما تعتقد آن ربول، لائحة ممدودة من المفاهيم، وإنما تعدت مجال الكلمة إلى الجملة، أو بالأحرى الملفوظ، كما تخطت مرحلة المشروع لتتحول إلى اتجاه له انشغالاته الخاصة»[1]، نستنتج مما سبق أن التداولية منهج يهتم بدراسة اللغة في الاستعمال وعلاقته بالمقام، وكل يحده حسب توجهه والتيار الذي ينتمي إليه، واشترك في التأسيس لهذا العلم اتجاهات: نشأتها على يد بيرس وموريس، وتطورها كمنهج ونظرية على يد أوستين وسورل وجرايس المنتمين لجامعة أكسفورد، إذ تناول بيرس البراغماتية في علاقة العلامة أو الرمز بالمدلول أو الشيء فيما يسمى بالسيميوزيس، وطور مفهومه موريس من خلال سيميائية ثلاثية الأبعاد أما أوستين فقد ربط المستوى اللغوي بالاجتماعي، وأكمل فكرته تلميذه جون سورل، واقترح بعد جرايس مبدأ التعاون، وتطورها وازدهارها كان إثر امتزاجها بمختلف العلوم مما يجعلها كفيلة بتحقيق غايتها المنشودة وهي دراسة المعنى في الاستعمال.

[1]- جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 21-22.

ثالثا: قضايا التداولية

هدف التداولية منذ نشأتها واضح وجلي وهو الانتقال من الاهتمام باللغة المجـــردة إلى اللغة المستعملة ومعرفة الأثر الذي يتركه المتكلم في نفسية المتلقي، والتأكيـــد علـــى أهمية السياق عكس الدراسات السابقة التي تناولت اللغة كعلم منغلق على المستوى اللغوي فقط، بالاعتماد على مجموعة من المفاهيم والآليات، وتعددت على إثره قضـــايا التداوليـــة وتنوعت ومن بين هذه القضايا: **الإشارة، الفعـــل الكلامـــي، متضـــمناتالقول، الاســـتلزام الحواري.**

واعتماد التداولية على هذه الآليات ساهم في تطورها وتحديد التغير الـــذي يطـــرأ على المعنى، وسنتطرق إلى تحديد معنى كل آلية على حدى.

1- الإشارة:الإشارات هي العلامات التي تشير إلى مدلول لعلاقة تلازمية تكمن أهميتهـــا أثناء غياب المشار إليه، فتكون العبارة حينئذ غائبة بحاجة إلى شرح والرجوع إلى مرجع ومعرفة ما تشير إليه هذه العناصر من معان فمعناها يتحدد إلا من خلال سياق الخطـــاب التداولي.

ففي كل اللغات كلمات وتعبيرات تعتمد اعتمادا تاما على الســـياق الـــذي قيلـــت فيـــه ولا يستطاع انتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه فإذا قرأت جملة مقتطعة من سياقها مثل:

سوق يقومون بهذا العمل غدا، لأنهم ليسوا هنا الآن

وجدتها شديدة الغموض لأنها تحتوي على عدد كبير من العناصر الإشارية التـــي يعتمـــد تفسيرها اعتمادا تاما على السياق المادي الذي قبلت فيه، ومعرفـــة المرجـــع reference الذي تحيل إليه، وهذه العناصر هي: واو الجماعة وضمير جمع الغائبين هم واسم الإشارة هذا وظرف الزمان غدا، والآن، وظرف المكان هنا، ولا يتضح معنى هذه الجملـــة إلا إذا

عرفنا ما تشير إليه هذه العناصر، ومثل ذلك أن تجد إعلانا غير مؤرخ يقول: **البيع بالمزاد العلني يوم الخميس** فلا تعرف عندئذ أي يوم من أيام الخميس يكون، وهل انقضى وقته أو لم يزل، ولكي يكون معناه مفهوما فلا بد من معرفة ما يشير إليه بتحديد زمانه بالقياس إلى زمان المتكلم، ومثل هذه العناصر تسمى العناصر الإشارية deictics أوالإشارات اختصارا، ويؤثر فلاسفة اللغة أن يستخدموا للدلالة عليها المصطلح indexical expression أو indexicals اختصارا، وكان بيرس أول واضع له[1]، فالسياق هو المكون الأساسي الذي تعتمد عليه العناصر الإشارية لكي يتضح معناها، فلا تفهم بمعزل عنه لأنها لا تحمل أي معنى في حد ذاتها، «كما أن الإشارة في أن، أنت، هنا، تفهم في سياقها الخارجي، ولا تتحقق إلا من خلال الاستعمال، وهي تستحضر المشار إليه إلى طرفي الخطاب، ووظيفتها المقاصدية تتصل بالسياق المخصوص بها، لتوضيح غاية المتكلم، وهي من العناصر التي يفسرها السياق اللفظي والسياق الخارجي، وهي من ناحية الدلالات مؤكدات، لأنها مدعمة بالواقع المادي الخارجي وبالمؤكد اللفظي أيضا، وهي تفيد التأكيد والاختصار في اللفظ لغناها عن ذكر المشار إليه واستحضاره في اللفظ»[2]، ومن أنواع الإشاريات:

أ- **الإشارات الشخصية:** وهي العناصر الإشارية دالة على شخص، ضمائر الحاضر، الدالة على المتكلم وحده مثل "أنا" والمتكلم ومعه غيره مثل "نحن" والمخاطب مفردا أو مثنى أو جمعا، مذكرا أو مؤنثا، وضمائر الحاضر دائما عناصر إشارية لأن مرجعها يعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تستخدم فيه، وليس من شك في أن الضمير أنا وأنت ونحوهما له دلالات في ذاته على المتكلم والمخاطب، لكن السياق لازم المعرفة من المتكلم أو المخاطب الذي يحيل إليه الضمير أنا وأنت، أما ضمير الغائب فيدخل في الإشاريات

[1]- ينظر،محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 15-16.

[2]- محمود عكاشة: النظرية البراغماتية اللسانية (التداولية)دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، ص 84.

إذا كان حرا أي لا يعرف مرجعه من السياق اللغوي، فإذا عرف مرجع من السياق اللغوي خرج من الإشاريات.

ويضيف فلاسفة اللغة للإشاريات بعدا آخر يتمثل في الصدق ومثال ذلك: أن تقول امرأة مثلا: أنا أم نابليون فهذا لا يعد مرجعا ولا بد من التحقق من مطابقة المرجع للواقع، قد ينشأ اللبس في استخدام الضمائر إذ تعددت مراجعها أو وقع تغيير بين المتكلم والمخاطب مثال ذلك: قال زيد: أنا قادم الليلة / هو قادم الليلة، كما يدخل النداء في الإشارة إلى الشخص ولا يفهم إلا إذا اتضح المرجع الذي يشير إليه[1]، تشمل الإشاريات الشخصية إذن ضمائر الحاضر كأنا ونحن مثلا ومعناها غائب في حد ذاتها إذ لا يتحدد إلا من خلال السياق أو المرجع الذي تحيل إليه مثلها مثل النداء، على عكس ضمائر الغائب التي لا تدخل ضمن الإشارة إلا إذا كان معناها غير محدد وإذا تحدد مدلولها من الكلام خرجت عنه، والشرط الأساسي للإشاريات كما يرى فلاسفة اللغة هو الصدق وأن يكون المرجع والمصدر واحد وتعدده يؤدي إلى وقوع الغموض في الكلام.

ب- الإشاريات الزمانية: للزمن أهمية كبيرة تتمثل في أنه «**يشغل الزمن حيزا مهما في دراسة الإشاريات، سواء تعلق الأمر بزمن الفعل أو بظروف الزمان، وهو ما نلمسه بعمق في كتاب "بنفنسيت: مسائل في اللسانيات العامة"، وتخصيصا في مبحث "علاقات الزمان في الفعل الفرنسي les relation de temps verbe francais " إذ اتضح أن دلالة الزمن لا تتحدد بزمن الفعل أو الظرف في حد ذاته، وإنما بزمن التلفظ، معنى ذلك أننا عندما نعمد لظرف زمن مثل (أمس) فإن دلالته تتحدد بالزمن الذي أنتج فيه الملفوظ، أي أنه يدل على اليوم الذي سبق يوم انتاج الملفوظ وبالمثل فإن (غدا) تدل على اليوم الذي يلي زمن الحديث، ومن هذا المنظور يتضح أن الزمن بقدر ما يمثل**

[1]- ينظر،محمود أحمد نحلة' آفاق جديدة، في البحث اللغوي المعاصر، ص 17- 20.

عنصرا ملازما لكل لغة، وحدث لغوي، بقدر ما تتصل دلالته بالخطاب والاستعمال»[1]، فالإشاريات الزمانية من خلال ما تطرقنا إليه لا تحمل دلالة في حد ذاتها ومعناها يتحدد من خلال سياق التلفظ واستخدامها يصاحب مقاصد المتكلم وسياق الكلام، فإذا لم تحدد المدة الزمانية للخطاب تعذر علينا فهمه فالزمن مصاحب لكل اللغات وأفعالها، وتتجسد الإشارية الزمانية في ظروف الزمان كاليوم وأمس مثلا وصيغ الأفعال الدالة على الزمان نحو: يسافر سعيد = يسافر = صيغة الفعل المضارع الدال على الزمن.

ج- الإشاريات المكانية: لتحديد المكانأهميةفي تحديد مواقع الأشياء، **إذ** لا ينفك المرسل عن المكان عند تلفظه بالخطاب وهذا ما يعطي الإشاريات المكانية مشروعية اسهامها في الخطاب، فنجد أنها تختص بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة إن هناك طريقتان رئيسيتان للإشارة إلى الأشياء هما: إما بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى، كما أن تحديد المرجع المكاني مرتكز على تداولية الخطاب، وهو ما يؤكد أهمية استعماله لمعرفة مواقع الأشياء وذلك كما في خطاب السائق عند ما يهاتف صديقه ليبلغه عن مكان وجوده بقوله:

- تقع الجامعة على يميني.

أو مثل من يصف موقع المسجد لغريب لا يعرف طريقته.

- **يقع المسجد على بعد كيلومتر**، فبالرغم من اكتمال الخطاب لغة، وبالرغم من معرفة المرسل إليه بموقع الجامعة إلا أنه يصعب عليه معرفة موقع المرسل بالتحديد، فلا يقدر على ذلك إلا إذا استطاع أن يعرف اتجاه سير المرسل، ومثله تحديد موقع المسجد، فلا يستطيع أن يحدده تماما عن طريق معرفة المسافة وحدها لأنه يمتد هذا المقدار من

[1]- جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 80-81.

المسافة إلى جميع الاتجاهات، وقد يبتعد ضعف المسافة لو سار في الاتجاه المعاكس لموقع المسجد، ولذلك فإن معرفة المواقع في كل من الخطابين، تستلزم شيئين هما: معرفة مكان التلفظ، واتجاه المتكلم؛ لأنه قد يقود استعمال إشاريات المكان، في غياب الدقة في التحديد عند التلفظ إلى اللبس وفي اللغة كثير من الأدوات، أدوات الإشارة المكانية، مثل: هنا، هناك، فوق، تحت، يمين، يسار، أمام، وراء [1]، نستنتج أن تحديد المكان شرط أساسي في عملية التواصل يشارك في الخطاب من خلال تحديد الموقع فقد ذكر لنا المؤلف أهميته التي تتجسد في طريقتين وهما: التسمية والوصف، أو تحديد الموقع، مستشهدا في ذلك بأمثلة من كلا النوعين ولكي يتمكن المخاطَب من تحديد موقع المخاطب يجب أن يلم بأمرين ألا وهما مكان المتحدث بالتحديد والدقة واتجاه المخاطب حتى يتمكن من تحديد المسافة التي تفصل بينهما، فالشرط الأساسي أثناء استخدام الإشاريات المكانية إذن يستوجب الدقة والوضوح حتى لا يحصل سواء الفهم والغموض، وما قيل عن الإشاريات الزمانية ينطبق على المكانية في أنها لا تحمل معنى في ذاتها وإنما يتحدد معناها من خلال السياق الذي تحيل إليه.

02- متضمنات القول(les implicites): تعد أحد أهم قضايا التداولية تهتم بدراسة الخطاب الأدبي والظروف المحيطة به خاصة الخفية منها، يعرفها "مسعود صحراوي" بقوله: «**مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره**»[2]، وتنقسم إلى نوعين:

---

[1]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط 1، 2004م، ص 84-85.

[2]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دارسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية، في التراث اللساني العربي، ص 30.

أ- **الافتراض المسبق:** «وهو مفهوم براجماتيكي تتضمنه العبارة في المقام الذي ترد فيه، من حيث العلامات المشتركة والمعروفة مسبقا لدى المتكلم والمخاطَب، إذ تعد العلاقة بين طرفي الخطاب المرسل والمتلقي من أهم العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد العلامات اللغوية المناسبة،فالمرسل عند انتاج نصه يأخذ باعتباره الخليفة الثقافية والمعرفية وما يملكه المتلقي من معلومات وأفكار تضيء معالم الرسالة، وتمنحه النور ليرى ما تحمله التراكيب السياقية من دلالات تداولية، ففي كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات، معترف بها، ومتفق عليها بينهم، تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل، وهي محتواه ضمن السياقات والبنى والتركيبية العامة ففي الملفوظ مثلا: أغلق النافذة، وفي الملفوظ: لا تغلق النافذة خلفية افتراض مسبق مضمونها أن الناقدة مفتوحة، فالافتراض المسبق له بالغ الأهميةفي عملية التواصل»[1]، فالافتراض المسبق كما سبق ذكره مفهوم تداولي تتضمنه الكلمات في سياقها من خلال معطيات معروفة بين المتكلم والمخاطَب، فعلى المتكلم أثناء تلفظه أن يكون ذا دراية بالمخزون المعرفي للمتلقي لكي يتمكن من فهم قصده وغايته الكامنة وراء إنتاج خطابه من خلال عمليتي الفهم والإفهام، فالافتراضات السابقة سبيل لتحقيق العملية التواصلية، وقد دعم لنا الكاتب رأيه بتقديم مثال عن النافذة، والشرط الأساسي للافتراضات المسبقة:

أن تكون المعلومات السابقة التي يمتلكها كل من المتكلم والمتلقي من صميم العملية التواصلية تعالج الموضوع المطروح بينهما، فإن لم تكن كذلك حصل ما يعرف بسوء الفهم.

ب- **الأقوال المضمرة:** les sons enteendus : تعد الأقوال المضمرة النوع الثاني من متضمنات القول لها صلة بوضعية الخطاب ومقامه على عكس الافتراض المسبق الذي

[1]- أحمد فهد صالح شاهين: النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، ص 20-21.

يحدد على أساس معطيات لغوية تقول أوركيوني: القول المضمر هو كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث، ومثال ذلك قول القائل: **إن السماء ممطرة**إن السامع لهذا الملفوظ قد يعتقد أن القائـــل أراد أن يدعوه إلى:

- المكوث في بيته.

- أو الإسراع إلى عمله حتى لا يفوقه الموعد.

- أو الانتظار والتريث حتى يتوقف المطر.

- أو عدم نسيان مظلته عند الخروج.

وقائمة التأويلات مفتوحة مع تعدد السياق والطبقات المقامية التي ينجز ضمنها الخطـــاب، والفرق بينه وبين الافتراض المسبق أن الأول وليد السياق الكلامي والثاني وليد ملابسات الخطاب»[1]، تعد الأقوال المضمرة من خلال هذا التعريف النوع الثاني مـــن متضـــمنات القول لا تعتمد على الخلفية المعرفية لدى المتلقي والمتكلم كالافتراض المسبق وإنما تهـــتم بالظروف والملابسات المحيطة بالخطاب وتجسيدها في الواقع مرتبط في ذلـــك بموضـــع الكلام، ومن أمثلة الأقوال المضمرة:

- **إن السماء ممطرة:** تحمل هذه العبارة عدة معان لا تتحدد إلا مـــن خـــلال الســـياق أو الموقف الذي قيلت فيه من بينها: **البقاء في المنزل أو الإسراع إلـــى العمـــل وغيرهمـــا،** ويفهم السامع لهذه الجملة المعنى المراد من خلال الحالة أو الموضع الذي هو فيه.

[1]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة: «الأفعال الكلامية، في التراث اللساني، ص 32.

3- الفعل الكلامي: من أبرز مفاهيم التداولية الفعل الكلامي الذي أولى له الباحثون اهتماما كبيرا فكان محط دراستهم أرسى معالمه الفيلسوف الإنجليزي "جون أوستين"، وتطور على يد "سورل"، و"غرايس"، كانت بوادر نشأته من أهم مبدأ في الفلسفة اللغوية، ولا يكمن مفهومه في تحديد اللفظ وإنما القيام بإنجاز عمل محدد، إذ يقول "خليفة بوجادي" في كتابه: «نشأت فكرة أفعال الكلام أو أفعال اللغة، من أهم مبدأ في الفلسفة اللغوية الحديثة – مجال نشأة التداولية وتطورها- وهو: أن «الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين أيضا في الوقت نفسه»[1].

ومن بين التعريفات المقدمة للفعل الكلامي: «أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري وفضلا عن ذلك يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية كالطلب والأمر والوعد والوعيد ، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول، ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطَب اجتماعيا أو مؤسساتيا، ومن ثم انجاز شيء ما»[2]، نستنتج إذن أن الفعل الكلامي هو كل قول يأتي بصيغة محددة من أجل تحقيق أمر محدد كالطلب مثلا أو الأمر أو الوعد أو الوعيد، هدفه التأثير في نفسية المتلقي من أجل معرفة رد الفعل الناتج عن ذلك القول كالرفض أو القبول مثلا، ويكون هذا التأثير إما اجتماعيا أو مؤسساتيا أو غيرها، «وذلك بعد ما كانت الفلسفة الوضعية المنطقية تشترط مقياسا وحيدا للحكم على دلالة جملة ما، وهو مقياس الصدق والكذب مما حصر العبارات اللغوية في منوال واحد، هو العبارات الخبرية كأن تصف واقعا ما ويحكم على صدقها أو كذبها بمدى مطابقتها لذلك الواقع نحو **(الجو جميل: صادقه في حال واحدة هي جمال الجو واقعا،**

---

[1]- خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 89.

[2]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص 40.

وكذابه في غير ذلك)، وجوهر الخبر عند هؤلاء الفلاسفة أنه لا يقبل إلا إذا كان خاضعا للتمحيص والتجريب وأن الوظيفة الأساسية للغة هي وصف حالات العالم وإثباتها.

ومن الذين تصدوا لهذه الفكرة "اوستين" من خلال محاضراته بجامعة هارفارد 1955م، حيث شبه إلى أن دلالة الجملة في اللغة العادية ليست بالضرورة إخبارا، وهي ليست مقيدة دائما بأن تحيل على واقع فتحمل الصدق أو الكذب وأن القصد من الكلام هو تبادل المعلومات مع القيام بأفعال تضبطها قواعد التواصل في الوقت ذاته، مما ينتج عنه تغيير في وضع المتلقي وتأثير في مواقعه، وللعبارات الإنجازية شروط أوضحها الدارسون، ولا تتحقق إنجازيتها إلا بها هي:

– أن يكون الفعل فيها منتميا إلى مجموعة الأفعال الإنجازية (وعد، سأل، قال، حذر، أوعد).

– أن يكون الفاعل هو نفسه المتكلم؛ أي أنها تمثل الفردية ممن يقولها.

– أن يكون زمن دلالاتها المضارع»[1].

نخلص إلى أن الفلسفة الوضعية قبل مجيء "أوستين" كانت ترى بأن الشرط الأساسي لمعرفة دلالة الجملة هو قياسها على أساس معياري الصدق والكذب، ومن ثم حصرها في العبارات الخبرية فالوظيفة الأساسية للغة عندهم تكمن في وصف حالات العالم وتأكيدها، إلا أن أوستين قام بالاعتراض لهذه الفكرة من خلال المحاضرات التي ألقاها بجامعة هارفارد، إذ رأى بأن دلالة الجملة لا تنحصر في الجانب الإخباري فقط بل تتعداه، فلا تدل على الواقع المعيشي كما أنها تحمل معنى الصدق والكذب دائما، بل تقوم على إنجاز مهام غايتها، التأثير في نفسية المتلقي، ولتلك العبارات الإنجازية شروط

[1]– خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 90–91.

أهمها: أن ينتمي الفعل فيها إلى مجموعة الأفعال الإنجازية وأن يكون الفاعل نفسه هو المتكلم وزمن دلالتها المضارع.

ميز "أوستين" بين نوعين من الأفعال الكلامية:

«أ- **أفعال إخبارية**constative: وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة.

ب- أفعال أدائية: performative: تنجز بها في ظروف ملائمة أفعال أو تؤدى، ولا توصف بصدق ولا كذب، بل تكون موفقة happy كما أطلق عليها أو غير موفقة unhappy، ويدخل فيها التسمية والوصية، والاعتذار والرهان والنصح والوعد»، ولا تكون الأفعال الأدائية موفقة عنده إلا إذا تحققت لها شروط الملائمة felicity condition، فإذا لم تتحقق كان ذلك إيذانا بإخفاق misifre الأداء، وشروط قياسية regulative، وهي ليست لازمة لأداء الفعل؛ بل لأدائه أداء موفقا غير معيب، فإذا لم تتحقق كان في ذلك إساءة abuse أداء للفعل.

حين تبين لأوستين أن تميزه بين الأفعال الإخبارية والأدائية غير حاسم وأن كثيرا مما تنطبق عليه شروط الأفعال الأدائية ليس منها، وأن كثيرا من الأفعال الإخبارية تقوم بوظيفة الأدائية رجع عودا على بدء إلى السؤال: كيف تنجز فعلا حين ننطق قولا؟»[1]، وبالتالي يتبين لنا أن تقسيم "أوستين" للفعل الكلامي لا يكتفي بالعنصرين المتمثلين في الأفعال الإخبارية والأفعال الأدائية فقط، وإنما يتجاوزهما وتوصل لذلك حين طرح الإشكال: كيف ننجز فعلا حين ننطق قولا؟ وأجاب بأن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال تعد جوانبا مختلفة لفعل كلامي واحد، ولا يفصل بينهما إلا لغرض الدرس، وقسم الفعل الكلامي الكامل إلى ثلاثة أفعال فرعية:

[1]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 43-44-45.

أ- **فعل القول أو الفعل لتلفظي:** ويتمثل في ثلاث مستويات للجملة وليس الكلمة وهي: صوتي، تركيبيودلالي، وهو القول المفيد عند علماء النحو، والتداولية اللسانية تهتم بالمعنى المستفاد من التركيب وتستبعد المعنى العام المعجمي، والمعنى السياقي هدفها الرئيسي.

ب- **الفعل المتضمن في القول أو الفعل الإنجازي:**يراد به الحدث الذي يقصده المتكلم بالجملة كالأمر أو النصيحة، والفرق بين الفعلين الأول والثاني أن الأول مجرد قول والثاني قيام بفعل ضمني قول، وزاوج أوستين بين القول والفعل في بداية نظريته ثم تراجع عن ذلك لأن كل قول عبارة عن فعل، بينما لا يمكننا الفصل في مضامين الفعل.

ج- **الفعل الناتج عن القول:** ويقصد به التأثير العملي للقول أو الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في المتلقي ورد فعل المتلقي كقبول الدعوة وإجابة السؤال وامتثال الأمر مثلا[1]، فالفعل الكلامي الكامل عند "أوستين" لا بد أن يشتمل على ثلاثة عناصر مهمة: فعل القول: أن تكون الألفاظ مذكرة في جملة مفيدة بناؤها النحوي سليم ذو دلالة، والفعل المتضمن في القول: ما يريد المتكلم طلبه من المتلقي كأمره أو طلب النصيحة، أما الفعل الناتج عن القول فيكمن في الأثر الذي يتركه القول في نفسية المتلقي كقبول طلبه مثلا أو إجابته عن السؤال المطروح.

أما تصنيف أوستين للأفعال الكلامية فقد كان على أساس قوتها الانجازية وتتمثل في خمسة أصناف هي:

«1- **أفعال الأحكام** VERDICTIVE: وهي التي تتمثل في حكم يصدره قاض أو حكم.

2- أفعال القرارات Exercitive: وتتمثل في اتخاذ قرار بعينه كالإذن والطرد

[1]- ينظر، محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) "دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ"، ص 99-100.

3- أفعال التعهد: Commissive: وتتمثل في تعهد المتكلم بفعل شيء، مثل الوعد والضمان والتعاقد، والقسم.

4- أفعال السلوك: **Behabitive**: وهي التي تكون رد فعل لحدث ما كالاعتذار والشكر والمواساة والتحدي.

5- أفعال الإيضاح: expositives: وتستخدم الإيضاح وجهة النظر أو بيان الرأي مثل الاعتراض والتشكيك والإنكار والموافقة والتصويب، والتخطئة»[1].

بالإضافة إلى الدور الذي قام به أوستين في نظرية أفعال الكلام نجد رافدا آخر قام بالتنظير لهذه النظرية ألا وهو "جون سورل" متأثرا في ذلك بأعمال "أوستين"، ودرس تلك النظرية من خلال محورين متكاملين، الأول خصصه لتحليل شروط نجاح الفعل الكلامي، والثاني: اقتراح نمذجة عامة لأفعال الكلام، ففي الأول وجه سورل اهتمامه نحو فعل الإنجاز، ذاك أن البحث في قضايا فعل القول لا يعد من صميم فلسفة اللغة وإنما مجال اللسانيات ويتعدى كذلك مجال التداولية، وأثناء دراسته لفعل الإنجاز ميز بين الفعل القضوي والقوة الإنجازية وأورد مثالا وهو: أعدك بالزيارة عما قريب محتواها القضوي هو: سأزورك عما قريب، وقوتها الإنجازية هي: أعدك.

وقد حدد سورل سبعة شروط متحكمة في الفعل الإنجازي هي:

1- شروط أولية: تتمثل في أن تكون المعارف القبلية مشتركة بين المتكلم والمتلقي من أجل تحقيق عملية التواصل وتنفيذ المخاطَب للأمر الموجه له.

2- شروط تحظيرية: تتصل بسياق الكلام الموجود ضمن حديث المتخاطبين تتمثل في متضمنات القول ومثال ذلك: سأعيرك سيارتي، الافتراض هنا أن المتكلم يمتلك سيارة.

[1]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 46.

3- شروط الغاية: وهي الغايات التي يقصدها المتكلم كالإخبار أو التعبير ..

4- شروط المواضـــعة: تتمثل في التعبيرات التي يستخدمها المتكلم لإنجاز فعل ما مثـــل: أعد، ألتزم.

5- شروط القصد: وهي النوايا التي يريد المتكلم التعبير عنها كالإخبار والاستفهام ...

6- شروط المحتوى القضوي: القواعد التركيبية والدلالية التي توجـــه القـــوة الإنجازيـــة لملفوظ ما، مثال: المحتوى القضوي للوعد يستلزم أن المتكلم سينجز فعلا.

7- شروط الوفاء: الحالة النفسية للمتكلم من حيث اعتقاداته ورغباته أثناء التلفظ بالفعل.

وبالاعتماد على هذه الشروط قدم سورل نمذجة عامة للأفعال الكلامية وقسمها إلى خمسة أصناف وهي:

1- الملفوظات التعهدية: وهي أن يلتزم المتكلم تجاه المخاطَب بإنجـــاز عمـــل مـــا فـــي المستقبل، وتكون الحالة النفسية هي الصدق، القصد نحو أعدك بالحضور غدا، سأحضـــر غدا.

2- الملفوظات الإنجازية: وهي حمل المخاطَب على إنجاز عمل ما مثل: آمرك بالخروج من الاجتماع، أخرج من الاجتماع.

3- الملفوظات الإخبارية: أن يكون المتكلم يحمل غاية الإخبار عن محتوى معـــين يعلـــم بصحته وهي ملفوظات ينطبق عليها معيار الصدق، والكذب نحو: سأسافر غدا.

4- الملفوظات التصريحية: يكشف المتكلم فيها عن مضمون واقعة مـــا بالإحالـــة إلـــى معطيات غير لسانية مثلا ذلك: أعلن الحرب عليكم.

5- الملفوظات التعبيرية: تكمن الغاية منها في تعبير المتكلم عن حالته النفسية شـــرط أن تكون نيته صادقة، من أمثلة ذلك: أهنئك على شجاعتك[1]، رغم الأهمية التي يشغلها الفعل الكلامي في الدرس التداولي إلا أن كلا من المختصين يدرسها حسب توجهه، فقـــد أكـــد "أوستين" على أهمية القصد والأثر الذي يتركه القول في نفسية المتلقـــي والســـياق الـــذي وضع فيه بينما "سورل" فقد اهتم بتحديد الشروط الواجب توفرهـــا لكـــي يـــنجح الفعـــل الكلامي، أما سورل فقد درس فعل الإنجاز أثناء تمييزه بـــين الفعـــل القضـــوي والقـــوة الإنجازية، وأخيرا فقد قسم كل منهما الفعل الكلامي إلى خمسة أقسام وضحناها سابقا.

4- الاستلزام الحواري:

من أبرز من مقومات الدرس التداولي الاستلزام الحواري، الذي تتميز به اللغـــات الطبيعية، فالعديد من الجمل تدل على معنى غير معناها الذي توحي إليه، وينقسم الاستلزام الحواري إلى أقسام سنذكرها مع تقديم أمثلة نوضحها.

ويقصد بالاستلزام الحواري: «المعنى المستفاد من السياق، ويعد من أهم المبـــادئ البراجماتية اللسانية التداولية، ويعني أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام **مبدأ تعـــاون**، وبمسلمات حوارية، وسلامة القول وقبوله من قائله وملاءمته مستوى الحوار، فبعض جمل اللغات الطبيعية في بعض المقامات تدل على معنى غير معنى تركيبها اللفظي، ويختلـــف مفهوم الاستلزام عن مفهوم الاقتضاء، فالاستلزام مفهوم لساني برجماتي بتغيير ظـــروف إنتاج العبارة اللغوية، والاقتضاء يمتاز بكونه لا يتغير بتغير ظروف اســـتعمال العبـــارة، فهو ملازم لها في جميع الحالات والأحوال، ومبدأ الاستلزام الحواري أصيل في التـــراث العربي، قال: الرازي: «إن اللفظ إذا وضع للمسمى وانتقل الذهن من المسمى إلا لازمه»، وهذا الانتقال يعني عدم وجود الافتراض في معنى الجملة، ولكنه اتصل بها برابط عقلـــي

[1]- ينظر، جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 91-94.

أو طبيعي أو اجتماعي»[1]، نفهم من خلال هذا التعريف أن الاستلزام الحواري أهم مبدأ تداولي وفحواه أن بعض المفردات تؤدي معنى غير معناها الواضح ويتميز مفهوم الاستلزام عن مفهوم الاقتضاء، فتحديد معناها راجع إلى استخدامات العبارات وجذوره ضاربة القدم، فقد ذكرها "الرازي" في ثنايا قوله، فالإنسان عنده أثناء نطقه للكلام يفهم السامع معنى تلك الكلمة في ذهنه، فاللفظ عنده ملازم للمعنى، وتتضح معالم هذا الاتجاه التداولي الجديد في أبحاث "بول غرايس" المتعددة فقد نشر مقالا في الدلالة عام 1957 the meaning وألقى بدوره محاضراته حول فلسفة "ويليم جيمس" بجامعة هارفارد عام 1967ي، كما توسع في توصيف العمليات الذهنية اللازمة لفهم الملفوظات وتأويلها في مقاله المشهور logic and conversation حيث نص على أن المتخاطبين عندما يتحاورون فإنما يقبلون ضمنا بجملة من القواعد والمواصفات وهي قواعد تحكم عمليات التواصل، وتوجه نحو نهايته الإيجابية بعد سيرورة من الاستلزامات والاستنتاجات والتخمينات والافتراضات المسبقة الخفية، على هذا الأساس أضحى تأويل الملفوظ رهينا بثلاث عوامل: معنى الجملة، السياق (اللساني وغير اللساني)، مبدأ التعاون[2]، ظهرت بوادر الاستلزام الحواري في أبحاث بول غرايس إذ يرى بأن الأشخاص من خلال العملية التواصلية يقبلون بمجموعة من القواعد يتعارفون عليها ضمنيا وهي المسؤولة عن التواصل بينهم وتكون متوجة بنهاية مقبولة ومعقولة بعد مجموعة من الاستلزامات والاستنتاجات والافتراضات المسبقة التي تكون خفية، وفهم معناها يرتبط بثلاثة عوامل: معنى الجملة ارتباطها بالسياق ومبدأ التعاون.

[1]– محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية والتداولية «دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ»، ص 86-87.

[2]– ينظر، جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 99.

لاحظ بعض فلاسفة اللغة واللسانيين التداوليينوخصوصا الفيلسوف "غـــرايس"، «أن جمل اللغات الطبيعيةفي بعض المقامات، تدل على معنى غير محتواها القضوي، ويتضح ذلك من خلال الحوار الآتي بين الأستاذين أ و ب.

– الأستاذ "أ": هل الطالب "ج" مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة؟

– الأستاذ: "ب"إن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز.

لاحظ الفيلسوف "غرايس" أننا إذا تأملنا الحمولة الدلالية لإجابة الأستاذ (ب) وجدنا أنها تدل على معنيين اثنين في نفس الوقت، إحداهما حرفي والآخـــر مســـتلزم، معناهـــا الحرفي أن الطالب (ج) من لاعبي الكرة الممتازين، ومعناهـــا الاســـتلزامي أن الطالـــب المذكور ليس مستعدا لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة، هـــذه الظـــاهرة اللغويـــة ســـماها "غرايس" بـــ: الاستلزام الحـــواري l'implication conversationelle لوصـــف هـــذه الظاهرة يقترح "غرايس" 1975 نظريته المحادثية، التي تنص على أن التواصل الكلامـــي محكوم بمبدأ عام (مبدأ التعاون)»[1].

وعليه فإن الاستلزام الحواري يفهم من خلال تأويل الكلام الوارد ضـــمن الســـياق فالإجابة الواحدة قد يفهم منها معنيين وهذا ما استنتجه "غرايس" من المثال الذي صاغه في هذا القول، وقد دعم هذا الرأي بنظرية سماها المحادثية والذي يستنتج منها أن التواصل ن الأفراد يعتمد أساسا على المبدأ التعاوني.

«1– هل علي في البيت؟

2– شاهدت سيارة على تقف عند بائع الخضار في نهاية الشارع، يحتوي هذا المثال على معنيين اثنين هما:

[1]– ينظر،مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللســـاني العربي، ص 33.

- المعنى الصريح: يمكن أن يفهم من خلال معاني مفردات التركيب المترابطة فيما بينهـا بقواعد نحوية، تحافظ على استقامة المعنى العام وسلامته، دالا على وقوف سـيارة علـي عند بائع الخضار مع اثبات ذلك المعنى بكونه شاهد تلك السيارة.

- المعنىالمستلزم الحواري لا يفهم من خلاله ما تقدمه الجملة من معاني، وإنمـا يعتمـد على الإطار العام للحديث، فيفهم من خلاله مثلا أن عليا ليس بالبيت.

ولكي يتمكن المؤول من الوصول إلى فهم صحيح للجملة المستلزمة حواريا، حاول جرايس، أن يضع العبارات اللغوية في قوالب تسهل على المؤول استنتاج المعنى، فقسـم الاحتمالات الدلالية للعبارة إلى قسمين:

1- معاني صريحة: وهي المدلول عليها بصيغة الجملة، ذاتها، وتشتمل على مايلي:

أ- المحتوى القضوي: وهو مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض في علاقة إسناد.

ب- القوى الإنجازية الحرفية: وهي القوة الدلالية المؤشر لها بأدوات تصيغ الجملة بصيغة أسلوبية ما.

2- معان ضمنية: هي المعاني التي لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة ولكن للسـياق دخل في تحديدها، أو التوجه إليها وتشمل مايلي:

أ- معان عرفية: وهي الدلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطا أصيلا وتلازم الجملة ملازمة في مقام معين.

ب- معاني حوارية: هي التي تتولد طبقا للمقامات التي تنجز فيها الجملـة مثـل الدلالـة الاستلزامية»[1]، وفي المثال الثاني يوضح لنا غرايس بأن الجملة الواحدة والتـي تصـاغ

[1]- أحمد فهد صالح شاهين: النظرية والتداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، ص 22-23.

على شكل سؤال تحتمل أكثر من إجابة: وهو ما أشار إليه بالقول بأن الاستلزام الحواري لا يفهم من خلال الجملة وإنما انطلاقا من الإطار الذي يصاغ فيه هذا الكلام، ويتم فهمه من خلال نقطتين أساسيتين تتمثلان في المعاني الصريحة وهو ما يفهم صراحة من القول الملفوظ والمعاني الضمنية التي لا يمكن فهمها من إلا من خلال ما تحتويه ضمنيا.

رابعا: أهمية التداولية ومهامها:

1- أهمية التداولية:

للتداولية أهمية كبيرة، فقد نالت مكانة مرموقة في الدرس اللغوي محط دراسة العديد من الباحثين إذ اختاروها كمنهج وموضوع لدراستهم خاصة في العصر الحديث.

- بعدما ما شاعت تصورات خاطئة عنها كاعتبارها سلة مهملات اللسانيات، وهذا التصور خاطئ إذ تهتم التداولية بإزالة الغموض من عناصر التواصل اللغوي، وتتجاوز استعمال اللغة في مستوياتها الصوتية والصرفية والتركيبية فقط وتهتم بجانب آخر وهو أحوال الاستعمال في الطبقات المقامية المختلفة حسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين[1]، نستنتج من خلال ما سبق ذكره أن الدراسات السابقة ركزت على دراسة اللغة في مستوياتها الصوتية والصرفية وأهملت جانب مهما ألا وهو الجانب الاستعمالي وكان هذا الأخير موضوع ومجال الدرس التداولي وهي علم جديد للتواصل لا تكتفي بوصف وتفسير البنية اللغوية فقط لكنها تدرس تلك الظواهر اللغوية في مجال استعمالها والتأكيد على أهمية السياق.

[1]- ينظر،مسعود صحراوي: التداولية عندما علماء العرب "دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية"، في التراث العربي، ص 27-28.

– كما تتضح لنا الآن أهمية التداولية كونها مشروعا شاسعا في اللسانيات النصية، تهتم بالخطاب ومناحي النصية فيه ودراسة التواصل بشكل عام بدءا من ظروف إنتاج الملفوظ إلى الحال التي يكون فيها للأحداث الكلامية قصد محدد.

– كما أن بإمكانها الإجابة عن الكثير من الأسئلة التي لم تجب عنها مجموع النظريات اللسانيات السابقة فقد عرض لنا مفهوما أوسع للتواصل والتفاعل وشروط الأداء[1]، نفهم من خلال هذه العبارة أن التداولية تمثل محورا هاما في لسانيات النص فكلاهما يدرسان اللغة إذ تسعى اللسانيات منذ نشأتها إلى تحليل مكوناتها، أما اللسانيات النصية فتتخذ من النص محورا للتحليل اللساني فتبدأ منه وتنتهي إليه، كما تهتم بالخطاب ومراحل العملية التواصلية إذ تبدأ باللفظ وظروف إنتاجه وصولا إلى المعنى الذي يحدده السياق والقصد وراءه، وتجيب عن العديد من الأسئلة التي أهملتها اللسانيات، فلا تدرس التداولية المستوى الصوتي والصرفي فقط، وإنما تؤكد على أهمية السياق ومقاصد المتكلم بالبحث عن المقام المناسب والشروط التي تضمن نجاح العملية التواصلية، وهذا ما جعلها شديدة الصلة باللسانيات النصية.

–انفتاح التداولية على روافد معرفية مختلفة منها الفلسفية واللسانية والأنثرولوجية والنفسية، ساهم في إغنائها بمجموعة من المفاهيم والفرضيات [2]، فاكتسبت بذلك أهمية ورونقا فباتت مجال بحث ودراسة.

2– مهام التداولية: تتلخص مهام التداولية في:

– «دراسة "استعمال اللغة" التي لا تدرس "البنية اللغوية" ذاتها، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها "كلاما محددا" صادرا من "متكلم

[1]– ينظر، خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 35.

[2]–ينظر، جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 23.

محدد" وموجها إلى "مخاطَب محدد" بـــ "لفظ محدد" في "مقام تواصـــلي محـــدد" لتحقيـــق "غرض تواصلي محدد".

- شرح كيفية جريان العملية الاستدلالية في معالجة الملفوظات.

- بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفـــي علـــى التواصـــل الحرفـــي المباشر.

- شرح أسباب فشل المعالجة اللسانية البنيوية الصـــرف فـــي معالجـــة الملفوظـــات»[1]. فأهميتها تكمن إذا في تحديد معاني المصطلحات الموجهة من طرف المتكلم إلى المتلقـــي داخل السياق والظروف المحيطة بها وكيفية انتاج العملية التواصلية.

خامسا- رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري:

من المعلوم أن الإنسان وثيق الصلة بحيوانات بيئته مما انعكس ذلك علـــى إنتاجـــة الأدبي والثقافي، فاتخذ من الحيوان بطلا وسرد على لسانه العديد من القصص والحكايات تحمل حكما وعبرا وتنطوي على غايات متنوعة ومتعددة كالغايـــة التعليميـــة والأخلاقيـــة والسياسية وغيرها.

وللمعري تجارب مع هذا النوع الأدبي والفني في رســـالتيه "القـــائف" و"الصـــاهل والشاحج"، وهذه الأخيرة محط دراستنا، فمتى أملى المعري هذه الرسالة؟ وما السبب الذي دفعه إلى تأليفها؟ وكم عدد النسخ المتوفرة منها؟ وماذا تحمل في مضمونها؟

[1]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلاميـــة، فـــي التـــراث اللســـاني العربي، ص 26-27.

1- لمن أملى المعري رسالة "الصاهل والشاحج" ومتى ألفها؟

تجمع أغلب الأبحاث والدراسات أن المعري أملى رسالة "الصاهل والشاحج" لعزيز الدولة فاتك الرومي وعلى الفاطميين على حلب، سلمت القلعة إلى الأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك، في شهر رمضان من سنة سبع وأربعمائة /.../وكان أدبيا عاقلا كريما، كبير الهمة فولاه الحاكم حلب وأعمالها، ولقبه أمير الأمراء، عزيز الدولة وتاج الملة، ودخل حلب يوم الأحد الثاني من شهر رمضان من سنة سبع وأربعمائة.

وكان محبا للأدب والشعر، وصنف له أبو العلاء بن سليمان "رسالة "الصاهل والشاحج" و " كتاب القائف"، وكان مقتله سنة ثلاث عشرة وأربعمائة[1]، فزمن تأليف المعري لهذه الرسالة محصور بين 407هـ-411هـ، لا يتجاوز هذه الأعوام، وفي متن الرسالة أيضا دلالة أيضا على الزمن الذي أملاها فيه المعري فقد ذكر "القفطي" في "إنباه الرواة على أنباه النحاة" أنها: «كتاب يعرف بـ "الصاهل والشاحج" يتكلم فيه على لسان فرس وبغل، مقداره أربعون كراسة، وكتاب لطيف في تفسير المقدم ذكره ب "الصاهل والشاحج" يعرف بـ لسان "الصاهل والشاحج"، وكان الذي عُمل له هذا الكتاب يدعى عزيز الدولة، وكتاب يعرف بـ "القائف" على معنى "كليلة ودمنة"، ثم ألفت منه أربعة أجزاء ثم انقطع تأليفه بموت من أمر بعمله، وهو عزيز الدولة المقدم ذكره، ومقدار هذا الكتاب ستون كراسة»[2]. ففي هذا القول نجد أن "القفطي" يدعم رأي "ابن العديم" حول زمن تأليف الرسالة وعلى من أملاها المعري.

ونص ياقوت في معجم أدبائه على أن أبا العلاء صنف هذه الكتب لأبي شجاع فاتك الملقب بعزيز الدولة، وإلى حلب للمصريين وكان روميا، إلا أن هناك من يرجع تأليفها إلا

---

[1]- ينظر، ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1417هـ، 1996م، ص 123-124.

[2]- طه حسين: تعريف القدماء بأبي العلاء، ص 45.

"اللامع العزيز" لعزيز الدولة "ثابت بن معز الدولة" ومن ثم قيل للكتاب: (الثابت العزيزي) والأستاذ "عبد العزيز الميمني"في كتابه "أبو العلاء وما إليه" تحرى اسم الشخص الذي صنف له أبو العلاء "الصاهل والشاحج" فصح عنده أنه: «عزيز الدولة "فاتك أبو شجاع"، وكان روميا كما في الإنصاف ومعجم ياقوت أما "اللامع العزيزي"، فمنسوب إلى عزيز الدولة ابن ثابت بن ثمال بن صالح[1]، نستنتج إذن أن أبا العلاء المعري كتب رسالته هذه إلى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك أثناء الفترة الممتدة من 407 إلى 411هـ.

2- سبب تأليف الرسالة:تعددت آراء الباحثين والدارسين حول السبب الذي دفع المعري إلى تأليف رسالة "الصاهل والشاحج" وبالرجوع إلى الرسالة نفسها نرى أن عائشة بنت الشاطئ قد فصلت فيها، إذ تتمثل هذه الأسباب في:

- أن مؤرخي أبي العلاء ذكروا له كتاب "الصاهل والشاحج" صنفه لعزيز الدولة "أبي شجاع فاتك الرومي" وهذه العبارة مضللة نفهم منها أن أبا العلاء تطوع من تلقاء نفسه في تصنيفه لهذا الكتاب لوالي حلب، وكان ذلك على وجه الإهداء والتكريم مثله مثل العديد من الكتاب الذي يخرجون كتبهم ويهدونها إلى الحكام وكبار الرؤساء والأعيان .

- أما السبب الثاني فقد أرجعه "طه حسين" في كتابه "تجديد ذكرى أبي العلاء": أن أبا العلاءكان يدفع الحكام عنه بكتب في اللغة يعنونها بأسمائهم، ويكون بذلك صداقات معهم.

- وقد أشار "ابن العديم" في كتابه "الإنصاف والتحري" إشارة سريعة إلى سبب الكامن وراء تصنيف "الصاهل والشاحج" [وكان السبب في تصنيفه أنه رفع إلى فاتك أن حقا يجب على بعض أقرباء أبي العلاء، وجب على أبي العلاء سؤاله فيه].

[1]- ينظر، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 2، 1404ه - 1984م، ص 10-15.

والسبب وراء تأليف المعري لرسالته إذن كما ترى بنت الشاطئ ليس على سبيل التطوع والإهداء على وجه التقية والمدارة كما ذهب "طه حسين" وإنما كان تحت ضغط وإلحاح من أبناء أخته وقد صرح المعرب بذلك فق مقدمة رسالته أن أبناء أخته كانوا متفانين في خدمته ورعايته واستجاب لهم بعد إلحاح وضغط منهم وفاء لما بينهم من صلة رحم»[1].

3- عدد النسخ المتوفرة من الرسالة:لرسالة "الصاهل والشاحج" نسختان موجودتان في الخزانة الملكية بالرباط، والنسخة الحفصية هي الأصل لوضوح رسمها وجمال خطها واتساع صفحاتها، لو لا تآكل صفحاتها من البلاء، مكتوبة بخط مغربي تتميز أوائل فقراتها بأن كتبت بخط أكبر من سائر الكلمات، أما الصفحة الأخيرة منها ما بعد متن الرسالة فتحمل شهادة وتاريخ الكتابة والمقابلة، أما النسخة الحضورية فمكتوبة بخط الإيمان بمداد أسود قديم تآكلت أطرافه دون أن يصل لتآكل الكتابة في أي صفحة، فسلم المتن كله، كاملا لم ينقص منه شيء، وصفحاتها مرقمة على طريقة الخط القديم، بتذييل كل صفحة بأول كلمة في الصفحة التالية، ثم وضعت عليها من صفحة 6 أرقام بمداد حديث، وعلى الصفحة الأخيرة منها، تقييدات التوثيق والتاريخ والمقابلة، والنسخة الحضرمية ليس أدنى من الحفصية أصالة لولا عسر قراءتها[2].

4- مضمون الرسالة:برع أبو العلاء المعري في الكتابة بنوعيها سواء الكتابة الشعرية أو النثرية فشغل أدبه اهتمام متخصصي العربية فدرسوا مؤلفاته وحاولوا استيعابها، وقد نحى في تأليف رسالة "الصاهل والشاحج" منحى جديدا يختلف عن كتاباته السابقة فكانت على لسان الحيوان إلا أنها تختلف عن كليلة ودمنة، فموضوعها واحد، وامتد تأليفه في هذا الجنس الأدبي في رسالة أخرى جاءت بعدها ألا وهي "رسالة الغفران"، فأنشأ حواره فيهما

[1]- ينظر، عائشة بنت الشاطئ: رسالة الصاهل والشاجح لأبي العلاء المعري، ص 21-24.

[2]- ينظر، عائشة بن الشاطئ: رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري، ص 64-67.

على ألسنة البهائم، ووصف أوضاع بلاده وسخريته من المعارك والحروب التي تجري فيها وظلم الحكام، ولا يظهر أبو العلاء في الرسالة إلى في التحية الموجهة إلى عزيز الدولة وذكر السبب الكامن وراء تأليف الرسالة، ويختفي بعدها، ويسرد على ألسنة الحيوانات باقي أحداث القصة، «ورسالة "الصاهل والشاحج"، قصة طويلة من نوع غريب تدور قصتها حول تظلم الأهالي من حياة وإلى حلب الفاطمي عزيز الدولة وتكليفهم أبا العلاء نقل هذه الشكاية، فكتب رسالته الساخرة على لسان الحيوان»[1]، وقد ذكرت الباحثة في بداية الرسالة أنواع الدابة التي كانت تعيش على تلك الأرض وهم: الصاهل (الفرس)، الشاحج (البغل)، الحمامة (الفاختة)، البعير (الجمل أبو أيوب) والثعلب، وسنتطرق لمجريات الحوار الذي دار بينهم والمتمثل في:

يبدأ الحوار أولا بالتقاء "الصاهل والشاحج" عند الماء، الشاحج هو البغل المتظلم من سوء الوضع يبحث عمن ينقل مظلمته الشعرية إلى عزيز الدولة، إلا أن الصاهل يقوم بالسخرية من الشاحج والتحقير منه فيتجادلان أشد الجدل ويحتاجان إلى حكم يفصل بينهما في هذا الموقف يقترح الصاهل أن يكون الحكم بينهما فاختة وهي الحمامة التي تمتاز بالكذب والحمق والخفة ويروي لها القصة مع زيادة وسخرية فيها، أما الشاحج فيقترح أن يكون الحكم بعير من إبل وردت الماء هناك، وعندما تسمع الفاختة أن الشاحج لا يريد تحكيها تغضب مما سمعته وتسرع إلى الجمل وتملي عليه القصة معكوسة ويندفع أبو أيوب (الجمل) هائجا بغضب ويهجم على الشاحج ويتعقد الموقف بينهما قبل اكتشاف مكيدة الحمامة وعندما يعلم بها يندم ويحاول إزالة الخطأ الذي ارتكبه ضد الشاحج ويقبل مسامحته ويوصل الجمل مظلمته إلى عزيز الدولة ويتجاوز فيها الشعر ويصوغها

[1]– ركان الصفدي: الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، سوريا، د ط، د ت، ص 152.

كصياغة ابن دريد للملاحم، ولكنه لا يفهم فحواها ويحس بأن الشاحج مجنــون وأحمــق، ويتأخر الخوض في أحداث حلب.

وفي هذه الأثناء يظهر الثعلب ويكون صداقة بينه وبين الشاحج بعد الحوار الــذي دار بينهما، ويتبادلان النصيحة، ويطلب منه الشاحج أن يقوم له بعمل ولن ينســى خيــره طوال حياته، ويتمثل هذا الطلب في أن يتجول في حلب مفتوح العينين –شــديد الحراســة واليقظة والفطنة– ويأتيه بأخبارها وأخبار أهلها وسكانها الخائفين من غزو الروم، فينقــل له الثعلب ما طلبه منه وما رآه بعينه (أخبار السياسة والحرب والبلاط والمجتمع)، وعنــد رجوعه من رحلته يأتي معه بنشرات إخبارية من أنباء الوقت والســاعة، فيأخــذ منهــا الشاحج ما يريد بعد الفهم الجيد لها ويعرف مواقف ورؤساء وقادة بلاد حلب.

تنتهي القصة أو المشهد بصوت أبي العلاء يملي تحية الختام للسيد –عزيز الدولة وتــاج الملة أمير الأمراء أعز الله نصره– بعدما كان أبو العلاء غائبا في الجــزء الســابق مــن القصة لا يقوم إلا بتحديد أدوار أبطال الرسالة والحوار الذي يجري بينهم، وبنفس الطريقة التي ألف بها رسالة "الصاهل والشاحج" أسس "لرسالة الغفران" التي جاءت بعدها بخمســة عشر سنة وفي كلتا الرسالتين سخرية مرة تعبر عن أوضاع المجتمع وشدة تعلق الإنسان بدنياه واستعداد أمير حلب لصد من يرسلهم الشاحج.

وتتميز لغة المعري أثناء سبكه للرسالة بالقوة والجزالة وألفاظه بصورة من التورية فــلا يفهم القارئ معناها من المرة الأولى إلا بعد القراءة المتكررة، فالرسالة إذن تعبر عن درر أفكاره.

وفي الثلث الأخير من الرسالة يصف لنا المعري عزيز الدولة وقائد الروم (بسيل)، وكانت كتابة الرسالة بعد دخول "أبي شجاع فاتك الرومي" واليا على حلب ولقبه (عزيــز الدولــة وتاج الملة أمير الأمراء) ومن صفاته: أنه ينظر في العروض للخليل، فأصــبح الشــعراء

يتهافتون عليه ويزن أشعارهم ذهبا والعامة أيضا بدأو يتحدثون عن غدر ومكيدة الحكام مما يسمعونه من هذيان السكارى من قادة الجيش في مجالس الشراب، وكانوا خائفين من أن يشن غزو روماني عليهم لأنهم يفهمون جيدا ما معنى الحرب، وذلك نتيجة ما وقع لهم من مذابح ومجاز وهتك للأعراض وانتهاك للحرمات والأموال وتخريب للديار من الغزو الصليبي، وشكا بنو إخوة أبي العلاء إليه هذا الوضع وأشار إلى ذلك في مقدمة الرسالة، وقضى المعري يشخص الشاحج الذي نظم مظلمتة ويريد من أحد أن يوصلها إلى عزيز الدولة المتمكن من العروض، المحدد لمنازل الشعراء، فصاغها بأسلوب من الألغاز والتورية على أمل أن تلقى على الفقهاء والشعراء وتحيرهم بألغازها وقد عارضه وأنكره الصاهل في ذلك –في أن يقوم بإرسال تلك الشكوى إلى عزيز الدولة– وفحوى هذه الشكوى أن الصاهل يرى بأن الأنباء التي وصلته من قبل الثعلب خاطئة وبأن مكانته أقل شأنا من مكانة عزيز الدولة ومن مثله لا يسمع منه قول أو إشارة، كما أن شعب حلب يحبون عزيز الدولة لدرجة أن عميت أعينهم معتمدين في ذلك على حكمة ومثل سابق وهو: "أن حب الشيء يعمي ويصم"، وشعب حلب يكثرون من وصفهم لسلطانهم فيشبهونه بالأسد فقلبه أشجع من قلبه، وينعتونه بالأم في رعايتها لأولادها فيقولون أنه: "بالرعاية أبر من الوالدة" وأن رأيه يرشدهم من الظلال ويخرجهم من الخطأ ويدعون له صفات أخرى لا يمكن أن تجتمع في بني البشر ومكانته عندهم كمكانة سليمان عليه السلام فيرون أنه أوتى ما أوتيه سليمان من قدرة لمعرفة كلام الحيوان كالبهائم والطير وصنوف الحيوان.

ثم يذكر الثعلب للشاحج أسماء البلدان الشامية التي قد يحتلها الروم ويمر بطريقها وقد شبه هذه الحرب التي يمكن أن تقع بالعروض وما يحدث له من تصريع وتشطير ... وخلل وكسر، فالحرب كذلك تلحق بالبلد أضرارا تتمثل في انتهاك الحرمات وسلب الأموال وهدم المنازل وفقر ومجاعات، كما ينقل له بعض الأخبار من أخبار عزيز الدولة بحلب مما

يتحدث به الشعب في أن بعض الخَدَمة أتوا من بلاد الروم إليه، واختلف السبب حول قدومهم، فبعض أبناء الشعب يرون بأنهم هدية من زعيم الروم إليه وآخرون يرون بأنه اشتراهم، كما اختلف الآراء حول عدتهم وأمر عزيز الدولة بتطهير ختان هؤلاء الخدمة وشبههم بأوزان شعر التي لا يحسن استعمالها إلا عند الحذف. وينقل الثعلب له خبرا آخرا قد شاع بين العامة، ألا وهو الشجار الذي جرى بين القائد مضيء الدولة وعزيز الدولة، فابن مضيء الدولة اتهم أباه بالخيانة وهو مخمول في مجلس الشراب بالحضرة العالية، وبعد الإطالة في الشراب يروي حديثا دار بين الخاصة فيها ممن شهد الحروب التي خاضها عزيز الدولة ممتطيا فرسه، يعمل بسيفين يمينا وشمالا والفرس في سرعة شديدة، وهذا الخبر أقرب من العجب ولم يروى مثله من قبل، كما تحدث أيضا ابن القائد على أنه شاهد السلطان عزيز الدولة بحلب ينظر في العروض للخليل وهذا مشابهة للعجب.

يكثر أبو العلاء من تكرار ألقاب عزيز الدولة والحديث عن مناقبه وبطولاته بلفظ غريب والاستشهاد بجوهر الأمثال والنكت العروضية، ومما تتضمنه الرسالة التي دارت بين أبي العلاء ومولى عزيز الدولة أن ملك الروم "بسيل" له ولد غير شرعي لا يجوز لعزيز الدولة أن يضع له رتبة ويجب أن يحكم على هذا الولد أنه من العامة لا الملوك، ولا يستطيع بذلك إذن عزيز الدولة أن يورث ملكه لمن لا يثبت نسبه، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، ولو علم أهل الملك أن عزيز الدولة فعل ذلك فإن ذلك لعار عظيم، وأن الأخ الأصغر لبسيل يملك بناتا يجوز تمليكهم الحكم وهذا أن تمليك امرأة صحيحة النسب في بيت الملك أحسن من تمليك رجل لم يثبت نسبه[1].

نخلص من خلال دراستنا لمضمون الرسالة أنها قد احتوت على كل المتطلبات التي يحتاجها الفن القصصي من مغامرات وأساطير واستخدام الحيوان كرمز يعبر عن واقع

[1]- ينظر، عائشة بنت الشاطئ، رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري، ص 40-47.

معيشي ينطوي تحت غايات سياسية وأخلاقية واجتماعية ... تعالج قضايا حقيقية، أملاها أبو العلاء المعري بطلب من أحد أبناء أخته ردا لصنيعهم الخير ورعايته له، ومن الحيوانات التي وظفها المعري في الرسالة الشاحج (البغل): وظف على أنه معصوب العينين يريد من أحد أن يرسل مظلمته (شكايته) لعزيز الدولة والصاهل (الفرس) الذي يلتقي به ويجري بينهما حوار يصل إلى حد النزاع فيقترحان أن يحكم بينهما ثالث يريد الصاهل أن يكون الحكم فاختة (الحمامة) تشتهر بالكذب والحمق والخفة، أما الشاحج فيريد الاحتكام إلى أبو أيوب (البعير) وقد فصلنا في هذا الحوار.

ومن الحيوانات الأخرى التي وظفها المعري في ثنايا رسالته الثعلب الذي ينقل الأخبار إلى الشاحج حول حلب والغزو الرومي المتوقع حدوثه.

وأخيرا تطرقنا إلى الصفات التي يمتاز بها كل من عزيز الدولة وملك الروم بسيل.

الفصل الثاني:

قضايا التداولية

في رسالة "الصاهل

والشاحج" لأبي

العلاء المعري

الفصل الثاني: قضايا التداولية في رسالة "الصاهل والشاحج":

ألّف أبو العلاء المعري رسالته الموسومة بـــ: "الصاهل والشاحج"، كما ذكرنا سابقا تحت جملة من الأسباب لعل أبرزها طلب أبناء أخته منه، ذلك أنهم يمتلكون أرضا قاحلـــة لا تنبت من الزرع إلا القليل، وقد رفع المتظلمون إلى عزيز الدولة أن لهم مـــالا عليهـــا يجب أن يدفعوه، فطلبوا من المعري كتابة رسالته تلك فوافق علـــى ذلـــك ردا لجمـــيلهم ورعايتهم إياه.فأشأها على لسان الحيوان، وقام بانطاقه، من أجل رفع مظلمتـــه وشـــكايته لعزيز الدولة، إذ جعل من الحيوان أداة إيصالية ونفعية تقوم على مجموعة من المقاصـــد والغايات.استخدم فيها ثروة لغوية وأسلوبا فريدا من نوعه، يعرض أوضاع الحياة اليومية لِعَامّة الناس وتسلط وجبروت الرؤساء والحكام والأحوال السياسية السائدة آنذاك.

ولكي يتمكن القارئ من فهم معناها، يجب عليـــه إعمـــال عقلـــه، والتّـــدَبر فـــي مضمونها. وقد استخدم "أبو العلاء المعري" في عرضه لتلك الآراء مجموعة من المفاهيم التداولية من بينها: الإشاريات، وأفعال الكلام، ومتضمنات القول، والاستلزام الحـــواري، وسنتناول مجموعة من الأمثلة لكل عنصر تداولي مذكور في ثنايا هذه الرسالة.

أولا: الإشاريات:

وهي قسم من أقسام التعبير الموجودة في كل اللغات الطبيعية، وتعد أداة للتـــرابط الداخلي لعناصر النص بعضه ببعض، لها صلة وثيقة بالسياق إذ لا يمكـــن تفســـيرها أو إنتاجها بمعزل عنه، فهي غائبة عن معنى في حَدِّ ذاتها، وإن قيلت بمعزل عنه لَحَصَل مـــا يعرف باللبس وسوء الفهم.

وتنقسم الإشاريات إلى ثلاثة أقسام رئيسية ألا وهي: الإشاريات الشخصية والزمانية والمكانية، وقد تضمنت رسالة "الصاهل والشاحج" أمثلة متعددة عن تلك الأنـــواع تمثلـــت في:

1- الإشاريات الشخصية:

وهي علامات لغوية، لا يتحدد مرجعها إلا من خلال الخطاب التداولي، خالية من أي معنى في حَدِّ ذاتها مبهمة، والسبيل إلى إيضاحها يتمثل في العودة إلى السياق الذي قيلت فيه. ومن أمثلتها: ضمائر الغائب، المتكلم والمخاطب، كما يمكن أن يدخل النداء في الإشاريات الشخصية، فعندما يستعمل في الإشارة إلى شخص معين لا يفهم معناه إلا من خلال العودة إلى المرجع الذي تمت الإشارة إليه.

من نماذج الإشاريات الشخصية التي وظفها "أبو العلاء المعري" في متن رسالته: ضمير المتكلم "أنا" وذلك في قوله: «**وقد علم الله، جل اسمه، أني أستنزر لـــ: السيد عزيز الدولة* وتاج الملة أمير الأمراء، خلد الله أيامه – كل كثير، فلو حملت إلى حضرته الذهب لظننته صُفْرا، أو الإيمان لحسبته نفاقا وكفرا، ولو جعلت شجر الكافور والأُلُوَّة[1] قوتًا للنار أوقدتها مَهَنَتُهُ في الصَّنْبَرِ[2]تَدْفَعُ بها قرة ذوات وَبْرٍ[3]، أوهمتني المحبة إني قد ونيت، ولو أهديت ظباء المسك إلى الصوائد التي بين يديه، خيلت لي عظمته أني جنيت، لا جعلني الله ممن يعيد الصَّربة[4]. من أفضل جنى، ويغدو بالخزر[5] ليضحي به في منى والمؤَبَّرة [6] خير من الوَبَرَة، وإن كانت ليس بالخَيِّرَة، وكل الصيد في جوف الفِرَا[7]. ولكن من يقدر عليه؟ وهل يطرق أهله بالجَأَبِ المسحور[1] ومن**

---

*أبو شجاع فاتك، مولى مانجوتكين، ولي حلب للفاطميين في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر وقتله بقلعة حلب علام له، هندي سنة 413.

1- الأُلُوَّة: بفتح الهمزة والواو المشددة، العود يتبخر به، كالألوة والألو، بضمتين فيهما.

2- الصَّنْبَر: شدة البرد.

3- ذوات وبر: أيام برد العجوز.

4- الضربة: الصبغة، جمعها صرب، وفي القاموي تدل على ما يتخير من العشب، ونبت فيه شيء كالدبس ويمص ويأكل والتعريب، أكل الصمغ.

5- الخزر: ذكر الأرنب.

6- المؤَبَّرة: الأرنب ذلك أنها إذا نظرت إلى الحزن قصدته لتؤبرها أي تخفيه.

7- الفِرَا: حمار الوحش، ذكره ابن السكيت ونقله الميداني في هذا المثل وذكر قصته.

يعجز عن مُقَطِّعضاتِ السحور؟ وأنا كصاحب المثل، قال: أين أغـدوا إذا صَـبَحْتُمُونِي؟ فقالوا: أعن صبوح تُرَقِّقُ؟ واذكر حاجتي قبل أن أُبْرِمَ[2] فأُجْرِمَ، لأن من أتـى بـالإبرام وقع في عظيم الإجرام:

لي-أطال الله بقاء السيد عزيز الدول وتاج الملة أمير الأمراء- أولاد أخ قد أَوْذَمُوا على أنفسهم من خِدْمَتِي ما ليس بلازمٍ»[3].استعمل "أبو العلاء المعري"ضمير المتكلم للمفـرد "أنا" فيما سبق كضمير مستتر، في الكلمات الآتية: أستنزر، حملت، ظننته، حسبته، جعلت، أوقدتها، أوهمتني، إني قد ونيت، أهديت ، خُيِّلَت لي، جنيت، جعلني، أنا، أعـدو، أذكـر حاجتي، أبرم، أجرم، وخدمتي، وكل هذه عناصر إحالية، تحيل إلى عنصر إشاري داخـل النص، من أجل توضيحه وتفسيره، إذ تحيل إلى ذات الكاتب أبي العلاء المعري .

وهي إحالات داخلية قبلية لمرجع واحد، تفهم تلقائيا من خلال سياق الكلام، إذ تدل على طلب "أبو العلاء المعري"من عزيز الدولة النظر في المظلمة التي كتبها، بطلب مـن أبناء أخته، ردا لجميلهم، فقد تفانوا في خدمته، ورعايته،بسبب حاجته إلـيهم – عمـاه-، ولهم قطعة أرض قليلة النبات، لا يجنون من ورائها إلا القليل. غير أن المتظلمين اشتكوا عدم دفعهم المال مقابلها لعزيز الدولة، فطلبوا من أبي العلاء أن يوصـل شـكايتهم لـه. فاستحى أن يرفض طلبهم، وما كان عليه سوى موافقتهم وقبول ذلك، حيث أغنى استخدام ضمير المتكلم كضمير مستتر إلى تفادي التكرار للاسم المشار إليه، مما يؤدي إلى ركاكة التركيب وضعف الأسلوب، وهذا عكس صفات أسلوب المعري الذي يمتاز بالدقة والمتانة.

1- بالجَأَبِ المسحور: الجأب: هو الحمار الغليظ أو الوحشي والمسحور العظيم البطن.

2- أبرم: يبرم إبراما، بمعنى أضجر هنا.

3- أبو العلاء المعري: رسالة الصاهل والشاحج، تحقيق: عائشة بنت الشاطئ، دار المعارف، المغرب، ط 2، 1404 هـ، 1984م، ص 83-84.

والبعد التداولي جراء استخدام هذا العنصر الإشاري –ضمير المتكلم "أنا" مستترا– إبراز دور السياق في تحديد مدلوله، فبالرجوع إليه، يفهم القارئ لمن يعود هذا العنصر الإشاري، وهذا المجال من اختصاص التداولية التي تهتم بدراسة اللغة في الاستعمال معتمدة على آليات تساعدها في ذلك من بينها العناصر الإشارية.

نستنتج إذن أن هذا الضمير قد حقق بعده التداولي وبجدارة بالإضافة إلى ضمير المتكلم المستتر "أنا" الذي وظفه أبو العلاء المعري للدلالة على ذاته، فقد وظف كذلك ضمير الغائب المتصل للمفرد "الهاء" الذي يحيل إلى عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء.

وقد ذكره بصيغة مباشرة في بداية الفقرة، أما عن المتن فقد اكتفى بالإشارة إليه فقط، تفاديا للتكرار وقد أسهم توظيف هذا العنصر الإشاري في ربط الجمل ببعضها، مما يؤدي إلى التماسك والانسجام بين الجمل، وتحقيق لحمة النص ونسيجه، وبعده التداولي يتمثل أيضا في أهمية السياق في تحديد مدلول هذا الضمير، فمعناه غائب في حد ذاته ولا يتضح إلا بالرجوع إلى ما قبله، فكلتا الإحالتين المذكورتين في الضميرين السابقين إذن إحالة قبلية لا تفهم مرجعيتها إلى بمعرفة سياق النص، فلو عزلت تلك الكلمات (**أستنزر، حملت .../ يديه، حضرته ...**) عن سياقها لكانت مبهمة لا تكشف عن أي معنى، والدرس التداولي هو الذي يؤكد على أهمية السياق والجانب الاستعمال للغة.

وظف أبو العلاء المعري ضمير المتكلم "أنا" في مواضع أخرى في رسالته تارة مستترا كما بينا ذلك وأخرى منفصلا. وذلك في قوله: «**وإنما جعلت هذا المقدار تافها، لشرف مقدار المسؤول فأما أنا فمذهبي أن الدرهم يقع عليه اسم المال الكثير، ولو كان في الوَجْذِ[1]. فراشةٌ وفي المحل الممحول غُذَيْمَةٌ[2]. لَكُفِيَت الغافلةُ مَنْ رماها، والجازئة**

1– الوَجْذِ: نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء، (الماء القليل في هذا القول).

2– غُذَيْمَةٌ: بقعة من الأرض فيها نبات وعشب.

من اسْتَمَاها[1]»[2].وهو عنصر إشاري يعتمد اعتمادا تاما على السياق في تحديد مرجعه، إذ وظف ضمير المتكلم "أنا" لا للدلالة على نفسه فقط بل كأداة للتواصل بينه وبين الآخرين لإيصال شكايته، ورصد الأحول السياسية في حلب، وكذا التعبير عن ذاته التي تعيش في ذلك العالم.

ورصد الأحوال المعيشية اليومية لعامة الناس وبالأخص أبناء أخته، فكان حضور الكاتب هنا كمتكلم ومبدع ومرسل، إذ أسند كلام غيره نيابة عن نفسه، وذلك للتأكيد على أهمية الدرهم الواحد عند الطبقة الكادحة عكس قيمته لدى الرؤساء والحكام.

واستخدم اسم الإشارة "هؤلاء" للإشارة إلى قومه في قوله : «**ولهؤلاء القوم أُرَيْضَة ليس بالأريضة، هي من قلة العمل كالمريضة غراسها ليس بعميم، وثمرها بين الثمر كبني يربوع في بني تميم، إلا أن أولئك حُمِدُوا في الغارة**»[3].يبين لنا أبو العلاء المعري صفات أرض أبناء أخته وقومه، إذ يصفها بالمريضة التي لا تنتج من الثمر إلى القليل، لأن زرعها قليل فكيف لأبناء أخته أن يدفعوا دَيْنَهم المزعوم وهم من عامة الناس أولا، وثانيا أن تلك الأرض قاحلة لا يجنون من ورائها إلا المال القليل «**وإذا كانت الضمائر تحدد مشاركة الشخوص في التواصل أو غيابها عنه، فإن أسماء الإشارة (أسماء الإشارة المكانية والزمانية وكذلك الظروف الدالة على الاتجاه) تحدد مواقعها في الزمان والمكان داخل المقام الإشاري، وهي تماما مثلها لا تفهم إلا إذا ربطت بما تشير إليه، ويجري تقسيمها في اللغة العربية إلى أقسامها المعروفة باعتماد المسافة (قربا وبعدا) من موقع المتكلم في المكان أو الزمان**»[4]. نفهم من خلال هذا القول أن اسم الإشارة لا

1- اسْتَمَاها: الاستماء: الصيد، والسماة على وزن رماة الصيادون.

2- المصدر السابق، ص 89.

3- المصدر نفسه، ص 89.

4- الأزهر الزناد: نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1993م، ص 117-118.

يفهم إلا باتصاله بمايشير إليه، ونجد المعري استخدم اسم الإشارة "هـؤلاء" الـدال علـى الجمع البعيد، ولا يفهم معناه إلا بارتباطه بما يليه –القوم– ووظفه ليصور لنا حالة أرضهم وصفاتها.

ولاسم الإشارة "هؤلاء" دور كبير في التحليل التداولي ذلك أنها ذات ارتباط بالعملية التواصلية، ومعناه لا يتجسد أو يتحقق إلا من خلال السياق الذي استخدم فيه.

أما اسم الإشارة "أولئك" استخدم للدلالة على القوم المذكورين سابقا– أقصد بـذلك الطبقة الكادحة وبالأخص أبناء أخته– وكان لهذا التوظيف الإشاري بعد تداولي يتمثل فـي تأكيد وتدعيم حجته السابقة.

أشار "أبو العلاء المعري"إلى طلب ابن أخته منه رفع مظلمتهم إلى عزيز الدولة في قوله: «**وقد عزمت يا خالي أن أستودعك رسالة إلى حضرة هذا الأمير، لتذكر بي ولاة العدل** ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ سورة الذاريات، الآية: 55.

فيكون منك الطَّولُ[1]. **بأن تصل تظلمي إلى الحضرة، فلعلي أنصف مع المظلومين قد ترى ما أنا فيه**»[2]. نَوَّعَ أبو العلاء في استخدامه للإشاريات الشخصية بين ضميرالمتكلم المتصل (التاء)، ياء النداء، كاف المخاطب، اسم الإشارة (هذا)، ضمير المتكلم (أنا) وكل هذه الإشاريات تدل على "أبي العلاء" وابن أخته، لا يتحدد معناها إلا من خلال السياق، وهذين الاسمين هما محور التلفظ في الخطاب التداولي ومحور العملية التواصلية، إذ استخدم ضمير المتكلم المتصل (التاء) –يقصد بذلك ابن أخته– للدلالة على رفع مظلمتهم، وجعل خالهم "المعري" وسيطا بينهم وبين عزيز الدولة.

1– الطَّولُ: والطائل والطائلة، الفضل.

2– أبو العلاء المعري: رسالة الصاهل والشاحج، تحقيق: عائشة بنت الشاطئ ، ص 96–97.

البعد التداولي وراء استعمال هذا الضمير التعبير عن الحيرة والقلق التي تعتريهم، إذا رفض عزيز الدولة إنصافهم مع بقية المظلومين، وكذا يقوم هـذا الضـمير بوظيفـة تداولية أخرى، وهي الوظيفة التنبيهية والتبليغية والتأثيرية: في القرار المنتظر من عزيـز الدولة.

أما صيغة النداء (يا خالي) أعلنت عن المرجع، الذي يؤول إليه استخدامها وهو أبو العلاء المعري. ومن الضمائر المستخدمة أيضا في هذا القول ضمير المخاطب (الكـاف) في قوله: **أستودعك** وهو ضمير مبهم لا يعرف مرجعه إلا بالرجوع إلى سياق الكـلام، إذ يدل على أبي العلاء المعري، ونوع الإحالة هنا إحالة نصية قبلية أسـهمت فـي تلاحـم فقرات النص وربطها ببعضها البعض، وترابطها وجعلها كبنية واحدة متراصة لا يفهم إلا من خلال السياق الذي وردت فيه.أما ضمير المتكلم أنا فقد ذكر منفصلا للدلالة على ابـن أخت المعري ورصد الحالة التي هو فيها.

نخلص إلى أن استخدام المعري للإشاريات الشخصية في القول السابق بعد تداولي متمثل في أهمية السياق في تحديد معاني الكلمات والضمائر وأسماء الإشارة ممـا يـؤدي إلى تماسك وترابط وحدات النص ببعض وتجنب التكرار الذي يؤدي إلى ركاكة المعنى.

يتعدد استخدام الضمائر في "**رسالة "الصاهل والشاحج" لأبـي العـلاء المعـري**"، فبالإضافة إلى الضمائر المذكورة سابقا والعناصر الإشارية الشخصية، نجد أن أبا العـلاء المعري قد زاوج بين استعمال ضميرين اثنين في حوار أجراه علـى لسـان الحيـوان – حوار قائم بين "الصاهل والشاحج" – وهذين الضميرين هما ضميرالمخاطب أنتم وضمير المتكلم نحن، وأدت هذه المزاوجة إلى الترابط والتماسك النصي وتحديد هوية كـل مـن المتكلمين، وكذا تحقيق العملية التواصلية بينهما، إذ يقول أبو العلاء المعري: «**فأما نحـن**

معاشر الجبهة[1]، فتُرمى بهوادينا الغمرات وتشهد على ظهورنا الغارات، وقلما اِطَّرَدَ فريقان من العرب إلا وأجلى النقع الثائر عن قتيل منا وعقير. وبذلك سلفت العادة من قديم الزمن»[2].

في هذا القول مفاخرة للصاهل بنفسه وبني جنسه، فمن مواصفاته الصبر والقدرة على تحمل مشقات الحروب، والفوز بالسباقات والسرعة، وكذا الوفاء لأصحابها، ذلك أن الحروب والغازات تشن على ظهورهم، كما يتميزون بالوفاء لأصحابهم، والتضحية في سبيلهم، وفي أي نزاع لا بُدَّ من هزيمة فريق على حساب آخر، وقطع للرقاب وهذه العادة متعارف عليها منذ سالف العصور، موظفا في حديثه نوعا من الإشاريات الشخصية ألا وهو ضمير المتكلم "نحن" في قوله: فأما نحن معاشر الجبهة، ويقصد بالجبهة الخيل، واستخدام هذا الضمير بمعزل عن السياق يظل مبهما بحاجة للعودة إليه من أجل تحديد معناه، فالسياق التداولي أيضا هو السبيل لمعرفة وإرجاع الضمائر إلى مرجعها، كما يستعمل الضمير نحن للدلالة على حضور المتكلم ووجوده في السياق وفي العملية التواصلية.

بعد افتخار الصاهل بنفسه وبني جنسه يذكر لنا مثالب الشواحج وذلك في قوله: **«وإن كانت الشواحج في شقاء فإنها لا تهلك أوانالقاء، إنما تَحْضُرُ الهيجاء مُعِينَة على حمل الأثقال فلا يَعْمَدُ إليها الطاعن بإرقال، ولا تبيت من شهود الغارة وَجِلَة مبطئة كانت أو متعجلة، وإنما يفرَق من اعتراك القوم فرس يلقى الصوارم بِهَادِيه، ويعاين الشَّجَبَ فَيُرَادِيه، هل حُدِّثْتَ بواحد من أصحابك هلك بطعنة أو ضربة؟ فأنتم من ذلك مثلُ حَمَامِ**

---

[1]- الجبهة: الخيل.

[2]- المصدر السابق، ص 115.

الحَرَمِ إنما يأتيها الموت بيد القضاء فتموت حَتْف الآنُفِ[1]»[2]. يصفهم الصاهل بالشقاء الدائم والعمل الدؤوب عملها الوحيد يتمثل في حمل الأثقال فلا فرصة لها للراحة.

ولا تشهد الحروب والمغارات كحال الخيول سواء أكانت في فترة راحة أو عمل وأما موتهم فدائما بالآجال بعيدا عن المشاهد الحربية.أما الخيلفتموتإما بالطعن أو الضرب في الحروب.

من الضمائر التي استخدمها الكاتب في هذا الحوار وذكر الصاهل لِمَثَالِبِ الشاحجمايلي: ضمير المخاطب (الكاف)، ضمير المخاطب (أنتم)، وضمير الغائب المتصل (الهاء) في قوله: (أصحابك، أنتم، يأتيها)، إذ يدل ضمير المخاطب (الكاف) على سابق معلوم في ثنايا النص وهم الشواحج ويؤدي توظيفه إلى تفادي التكرار، فلا يتضح مدلوله إلا بالعودة إلى السياق الذي قيلت فيه، ويدل ضمير المخاطب (أنتم) عليهم أيضا إذ يفتقد مرجعيته في حالة فقدان الاستعمال الواقعي له، وتكمن غايته في تحقيق العملية التواصلية بين الخيل والشواحج.

أما عن العنصر الإشاري "الهاء" فقد أسهم في تحديد المرجع الذي يحيل إليه إذ يعود على الجمع الغائبين وهم الشواحج، وقد وظف للدلالة عن الطريقة التي يلقون بها حتفهم إذ يموتون موتا عاديا بقضاء الله تعالى عكس موت الخيل في الحروب نتيجة الطعن أو الضرب، والعنصر الإشاري الهاء هو ضمير متصل غايته ربط الجمل ببعضها البعض.

وعليه تعد العناصر الإشارية الثلاثة المذكورة سابقا هي إحالات نصية قبلية لا تفهم إلا بالرجوع للسياق الذي استعملت فيه.

1- الآنُفِ: والأنوف: جمع أنف.

2- المصدرنفسه، ص 116.

يرجع أبو العلاء المعري تارة أخرى لتوظيف ضمير المتكلم "نحن" في قوله: «**فأما نحن فنباشر الشوكة إذا واجهنا الفئة، ولا نأمن حدها عند المنصرف ورب ميت منا في الشَّأْوِ المغرب**[1]. **كَظَّهُ الدَّأَبُ**[2]. **والغاية إلى أن فَاظَ**[3]»[4].

استخدم ضمير المتكلم "نحن" في هذا القول للدلالة على الخيل مرة أخرى حيث أغنى استخدام هذا الضمير عن تكرار الاسم المشار إليه، والبعد التداولي لاستخدام هذا المشير يتمثل في التعبير عن قصد الخيل وتعداد صفاته ومفاخرته بنفسه للشاحج.

بعدما أتم الصاهل تعداد صفاته ومفاخرته بنفسه، فصّل الحديث عن أكل لحم كليهما في قوله: « **فمتى أصاب أحدا من رهطِك سِنَانٌ بِشَرٍّ، أو قتل في كَرٍّ وفَرٍّ؟ وهل حُدِّثْتَ عن بعض أُسْرَتِكَ أن مُهَنَّدًا أَفْرَى عُنُقَه أو أصاب المفصل فَطَبَّقَه؟ وأكْلُ أبناء أبيك مُحَرَّمٌ في المِلَّة، فقد أَمِنَ كُلُّهَا حَدَّ المُدْيَةِ وَغَلَيَان المِرْجَل، وأن تَهْرَأَ بَضِيعَه الإِرَةُ**[5].**ونحن لسنا كذلك، بل كانت العرب تأكل لحومنا في الجاهلية، وتركها الشرح الوارد**»[6]. وظف في هذا القول العديد من العناصر الإشارية لتحقيق تماسك النص، أما مدلول كل منها فيتمثل في:

- **كاف المخاطب:**

يعود استخدام كاف المخاطب إلى الشاحج في كلمة (رهطك، أسرتك، أبيك) إذ تُحقق هذه الكلمات ترابطا وانسجاما بين وحدات النص ببعض، ونستنتج أن للسياق أهمية

---

[1]- المغرب: البعيد، إغرابا فهو مغرب.

2- كَظَّهُ الدَّأَبُ: بهظه وجهده وكربه.

3- فَاظَ: فيضا وفيضانا، محركه وفيوظا، بالضم وأفاظه الله تعالى وحان فيظه أي موته

[4]- المصدر السابق، ص 116.

[5]- بَضِيعَه الإِرَةُ: على وزن عدة، والنار جمعها إرات، والفعل: أر النار يئرها والبضع: اللحم.

[6]- المصدر السابق، ص 117-118.

كبرى في تفسير الكلام وتعيين المشار إليه، إذ أفصح لنا عن المقصود من وراء توظيف تلك الكاف الدالة على الشاحج

ويدل الضمير المستتر في الفعل (قتل) على الشاحج أيضا ولم يرد منفصلا تفاديا للتكرار، وهي إحالة قبلية وظفت من أجل توضيح وتفسير قضية أكل لحوم البهائم، وأجاب عن هذا باستخدامه للعنصر الإشاري (الهاء) الدال على مرجع سابق ومتعلق بالمفرد الغائب "الشاحج" إذ أسهم في ربط الجمل ببعضها البعض في كلمتي (عنقه، طبقه). وظف الكاتب هاتين الكلمتين للانتقاص من قدر الشاحج،ذلك أن قطع عنق الشاحج أو إصابة مفصله المؤديان إلى وفاته لم ترد الأخبار ولم تتناقله الأمثال.

ومن باب التعريض بالشاحج أن لحمه محرم في الشرع، وذلك في قوله: (وأكل أبناء أبيك محرم في الملة) على عكس الخيل التي تنفي هذه الصفة عن نفسها وترى بأن أكل لحومها جائز، فقد كانت العرب في الجاهلية تأكله،ثم أتى الشرع بتحريمها، ووظف المعري على لسان الصاهل ضمير المتكلم نحن في قوله: "وأكل أبناء أبيك محرم في الملة"، والبعد التداولي الكامن وراء توظيف هذا الضمير تأكيد أهمية السياق في تحديد مدلوله، وهذا من مهمة التداولية التي تهتم بدراسة اللغة في الاستعمال، معتمدة في ذلك على مجموعة من القضايا من بينها الإشاريات الشخصية،وتدخل ضمائر المخاطب ضمنها، ذلك أنها مجردة لا تحمل أي دلالة في حد ذاتها، وإنما تتحدد من خلال المقام الذي قيلت فيه.

اشتمل المشهد الثاني من رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري على عدد كبير من الإشاريات الشخصية، تنوعت بين ضمائر المتكلم وكاف المخاطب ضمير المتكل أنا، وياء المتكلم وأسماء الإشارة وضمير المخاطب المتصل التاء، إذ أسهمت هذه الإشاريات في اتساق النص وانسجامه وترابط فقراته بعضها ببعض، إذ يقول المعري في ثنايا رسالته:

«ويَقْدِرُ الله جل اسمه على أن ينطقَ الصاهلَ، فيقول:ما كفاك أنك ادعيت النظم الذي هو طبع في غريزة الآدميين مطلق أن يقوله الصبي منهم والمرأة والشيخ اليَفَنُ والعجوز الفَانِية، وهو في غرائز الأمم كلها /.../ أما أنا فأتصورك بصورة الكاذب، وقد رابني ما قلتَ فاجعل بيني وبينك حكما ترضاه، فإن صدَّقك سلَّمتُ لك أني على خطأ، وإن اتهمك مثلَ ما اتَّهَتمكُ، علمتَ أني معذور في الظَّنَّة بك.فأما الضَّب الذي هو قاضي البهائم، فبعيد المنزل عني وعنك أقرب دياره إلينا مسيرة ثلاثٍ أو أربعٍ، ولكن هذه الفاختة[1] قد وردت عليك الماء وهي من شعراء الطير، وإنما اِدَّعَيْتُ ذلك لها، إذ كانت حكايةُ صوتِها جنسا موزونا، ومن تأمَّل ذلك وجدَه كما ذكرتُ فاعرض عليها شأنك وانظر ما تقوله، فلو كان موافقا [لي في صفتك فاعلم أني أردت نصحك، وإن كان موافقا لك] فاعلم أني دَاجَيْتُكَ وَأَضْمَرْتُ غِشَّكَ، فاختر أَيَّنَا يكون السائلَ لها في ذلك. وإن شئت أن نجتمع على سؤالها فإن ذلك يسير قريب»[2].

نفهم من خلال هذا القول، أن خلافا حادا جرى بين "الصاهل والشاحج"، إذ احتج الصاهل على الشاحج جمعه بين ساكنين في صوته من دون توقف وأخذ نفس. وقد طال هذا الخلاف إلى حد النزاع، فقرر الصاهل الاحتكام لِثَالث، يفصل بينهما ورأى بأن الضب لا يمكن أن يكون هذا الحكم، لبعد المسافة التي تفصله عنهما، ورأى بأن الفاختة

[1]- الفاختة: واحدة الفواخت من ذوات الأطواق: ضرب من الحمام المطوق.

[2]- المصدر السابق، ص 193-194-195.

هي الأحق بأن تكون ذاك الحكم، لأنها من شعراء الطير إذ صوتها موزون مقفى شأن الشعر تماما وذلك ما يؤهلها للحكم.

طلب الصاهل من الشاحج عرض مشكلته إليها فإن وافقت الصاهل فإنما كان قوله له من باب النصح والإرشاد، وإن لم توافقه يستنتج الشاحج إذن أن الصاهل يخدعه ويغشه، وقد استخدم المعري في عرضه لهذه الفكرة عددا من الإشاريات التيتدخل ضمن الإشاريات الشخصية ألا وهي:

– كاف المخاطب: في الكلمات الآتية (**كفاك، أنك، فأتصورك، بينك، صدقك، لك، اتهمك، اتهمتك، بك، عنك، عليك، شأنك، صفتك، نصحك، لك، داجيتك، غشك**)، وقد جاء ضمير المخاطب الكاف في هذه الكلمات للدلالة على اثنين هما: الشاحج والفاختة إذ تدل كلمتي (صدقك، اتهمك) على الحكم (الفاختة) بينما بقية الكلمات تدل على الشاحج. اعتمد أبو العلاء المعري على الإحالة التخاطبية مستعينا بضمير المخاطب المتصل الكاف لعرض رأيه، وتفادي تكرار اسم كل من الفاختة والشاحج في فقرة واحدة، كل مرة، فالسياق قد اقتضى استخدام هذا النوع من الإشاريات.

– **تاء المخاطب**: وردت تاء المخاطب في الكلمات الآتية (ادعيت، قلت، علمت، شئت)، لتدل على الشاحج وتعرض رأي الصاهل في جعل الفاختة حكما بينهما، استخدم أبو العلاء المعري ضمير المخاطب المتصل التاء في تلك الكلمات ليربط الجمل ببعض مما يؤدي إلى جعلها متماسكة وتحديد للمعنى المراد إيصاله.

– **ضمير المتكلم (أنا)**: استعمل المعري ضمير المتكلم في رسالته بنوعيه تارة منفصلا وأخرى مستترا، ورد منفصلا في قوله (أما أنا فأتصورك) إذ يحيل إلى ذات المتكلم الصاهل المذكور سابقا، ويفهم مرجعه بالعودة إلى سياق الكلام، وورد مستترا تفاديا للتكرار في الكلمات التالية: (**سلمت، دعيت، ذكرت، أردت، أضمرت، ذكرت، أردت،**

أضمرت)وهي إحالة إلى عنصر إشاري مذكور سابقا (الصاهل) الذي يظهر جليا واضحا في قول الكاتب **(ويقدر الله جل اسمه على أن ينطق الصاهل).**

– **الإشاريات الدالة على الغائب:**وظف أبو العلاء المعري الإشاريات الدالية على الغائب في القول السابق في مايلي:

– **الضمير المنفصل (هي):** الدال على الفاختة في تعداد الصاهل لصفاتها في قوله: **(وهي من شعراء الطير).**

– **الضمير المتصل الهاء في الألفاظ: (لها، صوتها، عليها، سؤالها)**، للدلالة على الفاختة أيضا، إذا اجتمعت كل هذه الضمائر مؤدية وظيفة واحدة وهي الإحالة على المرجع نفسه والبعد التداولي من وراء استخدام ضمائر الغالب يكمن في أن المتكلم لم يذكر المرجع المقصود باسمه بل أشار إليه باستخدامها والسبيل إلى معرفته هو السياق الذي استخدم فيه.

بعد طلب الصاهل جعل الفاختة بينهما بقدرة الله ينطق الشاحج فيقول: «**بأنك احتججت أني أجمع بين الساكنين في صوتي، من غير وقف يدرك النَّفَسَ، وهذه الفاختة بين ابتدائها بصوتها وسكوتها على آخره، ساكنان يلتقيان ليسا في وقف، لأن العامة يقولون في حكاية صوتها:... يا فاختة فيكسرون الخاء، وهذه لعمري كلمة موزونة**»[1]. إذا كان ضمير المخاطب الكاف يدل في المثال السابق على الشاحج، نجده في هذا المثال قد وظف للدلالة على الصاهل في قوله (بأنك) واستخدم للتعبير عنه ثانية تاء المخاطب ففي الفعل الماضي "احتججت" كما استعمل المعري ضمير المتكلم (أنا) ضميرا مستترا في (أجمع بين الساكنين في صوتي) لتحيل كلمتي أجمع وصوتي على المتكلم الشاحج وهي إحالة قبلية ذكرت في متن رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري.

[1]– المصدر السابق، ص 196.

كما استخدم في نفس القول إشارة شخصية وهي اسم الإشارة (هذه) لتحيل لمرجع مذكور بعدها وهوالفاختة وهي إحالة بعدية، واستخدم ضمي الغائب المتصل الهاء للمفرد في: (ابتدائها، بصوتها، سكوتها) لتحيل إلى نفس المرجع السابق (الفاختة) لا تفهم إلا من خلال المقام الذي قيلت فيه وكذا يقول الشاحج: «**ومن ظلمك وإعْنَاتِك أنك دعوتني إلى تحكيم حَكَمٍ العامَّةُ تَضْرِبُ المَثَلَ بِكَذِبِهِ فتقول: أَكْذَبُ من فاختة؟ أَفَتَرَاني أَجْعَلُ حَكَمًا على نفسي مَنْقَدْ شُهِرَ بهذه الشِّيمَة**»[1].

في هذا القول يرفض الشاحج توظيف الفاختة كحكم بينهما، ويرى بأن ذلك ظلم له فالعامة تنعتها بالكذب إذ تقول: **(أكذب من فاختة)** فبهذا النعت يستطيع جعلها الحكم، ومن بين العناصر الإشارية الموظفة في هذا القول كاف المخاطب الدالة على الصاهل وضمير المتكلم المستتر (أنا) الدال على الشاحج بعدما أتم الشاحج عرض فكرته يجيبه الصاهل بأن رغبته من أن تكون الفاختة الحكم بينهما مبني على أساس كونها شاعرة لا غير إذ تفهم في أحكام الشعر، وتشبيه العامة لها بالكذب إنما هو افتراء وأن حديثهما حول التقاء الساكنين فقد أخذ وقته ورغبة الشاحج في تحكيم الإبل بينهما لا يقبلها العقل، ومن الجهل تحكيمها ذاك أن ابنها عندما يذبح ويحش بطنه بالصوف ويوضع أمامها تقوم بإعطائه الحليب دون أن تشعر بأنه مقتول وفي هذا قلة عقل، إذ يقول: «**إنما اخترت الفاختة إذ كانت، شاعرة فأردت أن أستعين بها على أحكام الشعر /..../ وأما في قولك في التقاء الساكنين ما قلت فقد مضى في المحاورة معك ماهو كاف**»[2].وفي تلك الأثناء تسمع الفاختة ثناء الصاهل عليها، وذم الشاحج لها ورغبته في جعل الإبل الحكم ومدحه فتغمز للصاهل ذاك أن الشاحج معصوب العينين لا يستطيع رؤيتها، وتنقل كلامه للإبل بالمعكوس فتأخذ كلام الصاهل ووصفه للإبل بالجهل وتنقله على لسان الشاحج إلى الإبل،

---

[1]- المصدر نفسه، ص 198.

[2]- المصدر السابق، ص 198-199-200.

فيغضب منه وعند سماع الشاحج لغضبه يرد عليه قائلا: «**فضج الشاحج وقال: ما هذا يا أبا أيوب؟ لقد سَفُهَ حِلْمُكَ وَخَفَّ وَزْنُكَ وَنَفرتْ نَعَامَتُكَ، فما الذي حملك على ما صغت؟**»[1]. استخدم أبو العلاء المعري في عرضه لهذه الفكرة مجموعة من الإشاريات الشخصية من بينها: ياء النداء في كلمة (يا أبا أيوب) ليشير إلى المخاطب، وهو الجمل لتنبيهه وتوجيهه، وهذا النوع من الإشاريات الشخصية لا يفهم إلا إذا اتضح المرجع الذي يؤول إليه، كما دل استخدام كاف المخاطب عليه أيضا ويأخذ توظيف المعري لهذه الإشاريات بعده التداولي من خلال التأكيد على أهمية السياق في تحديد مدلول كل منها.

بعد الحوار الذي جرى بين أبي أيوب والشاحج ترد الضبع وتطلب السؤال من الشاحج بعد سماعها لمخاطبته للعمل فتزعم أنها فهمت وعرفت قصده فتسأله إخبارها بما يجول في خاطره لعلها تعطيه الحل والأنسب، لكن الشاحج يعلم أنها من أحمق البهائم ويجري بقدرة الله حوار بينهما حول كنيتها وفي الأخير تدله على أن يسمع شكايته الكلب الحلبي الذي يساعدها في أشد حاجاتها ويقوم بدوره بإلقاء شكايته إلى البازي فيدله على الصواب فيشكرها الشاحج حول محاولة مساعدتها له ويجيبها بأنه قد يئس من بلوغ مراده والحل الوحيد أمامه هو الصبر ذاك أن الله تعالى أمرنا بالتحلي به في كتابه الكريم.

نصل إلى المشهد الثالث من الرسالة وهو ورود الثعلب ثعالة والبشارة التي حملها إلى الشاحج ودعائه له وثنائه عليه، وبينما يتحدثان يقول الشاحج: «**ألا تعلم لنا الخبر يا ثعال؟ فيمضي ثعالة مبادرا، ثم لا يلبث أن يعود فيقول: العامة يخبرون أن زعيم الروم *قد نهد إلى أرض المسلمين**»[2]. يجيبه الشاحج بأن عزيز الدولة سيردها بإذن الله وأن هذا الخبر كذب، فطلب الشاحج المقيد المكفوف من الثعلب ثعالة، وترجاه أن يتعرف على

---

[1]– المصدر نفسه، ص 207.

* بسيل ملك الروم.

[2]– المصدر السابق، ص415.

وجه الضجة فيلبي الثعلب رجاءه وينقل له الأخبار بقوله أن العامة يخبرونه أن زعيم الروم نهد إلى أرض المسلمين وأن عزيز الدولة توجه برسالته إلى الطاغية من أجل كفها عن ذلك الغزو، إلا أنها لم تجب في قوله: «**وزعمت العامة بجهلها أن رسالته إلى زعيم الروم أمسك عن جوابها لأمر لا يُعْلَمُ**»[1]. ثم نجد أبا العلاء المعري يشير إلى ما بين عزيز الدولة وملك الروم بسيل من مودة وتفاهم، وإعطاء عزيز الدولة له هدية شبهها بعمل "ما" التي تكف العامل عن العمل إذ تكف إن وأخواتها عن النصب مثلا، وهذه الهدية ستجعله يكف عن الغزو الذي سيقوم به رأفة برعيته، بعد عرض المعري لهذه الآراء يبين لنا الخبر الجديد الذي أتى به ثعالة إلى الشاحج وهو خوف أهل حلب من الغزو الرومي وما قد ينتج عنه من خسائر مادية وبشرية وابتعادهم عن أراضيهم وبالأخص فئة ذوي الاحتياجات والنساء والشيوخ، ونصح الشاحج للثعلب وتصديقه له في قول المعري: «**فيجوز في قدرة الله تعالى أن ينطق الثعلب فيقولَ: صدقت أيها الشاحج، إنك لَلْكَهْلُ المجرب وإني لراغب في استماع ما عندك من الأمثال**»[2]. ثم يأمره بالإتيان له بأخبار أخرى وذهابه إلى موقع الجاليين مع طائفة من الثعالب والنموس.

نوَّع المعري من استعماله للإشاريات الشخصية فوظف ضمير المتكلم كما ذكرنا سابقا في المشهدين الأول والثاني من أجل البوح والاعتراف والمخاطب للتوجيه والإرشاد، إلا أن هذا المشهد –الثالث– وظف فيه ضمير الغائب بصفة لافتة للانتباه والدافع من وراء توظيف أبي العلاء المعري له الرغبة في عدم إظهار المتكلم إلا في الموقف الذي يريده، وأن طبيعة الكلام اقتضت استخدام هذا العنصر الإشاري ذاك أن الكاتب يرصد لنا حال حلب على لسان الثعلب ينقل الأخبار إلى الشاحج وفي هذا النقل يستوجب استخدام الفعل الدال على حدث مضى وانقضى.

---

[1]– المصدر نفسه، ص 419.

[2]– المصدر نفسه، ص 505.

ومن الأمثلة المبثوثة في ثنايا الرسالة والمحتوية على ضمير الغائب مايلي:

الضمير المستتر في الأفعال الماضية: تم توظيفه في الحوار الذي دار بين الشاحج والثعلب، فبقدرة الله ينطق الشاحج ويقول:

«ما لخالقك من غالب، فبورك صباح الثعالب، مازلت ميمونا [1]. من رهط ميامينَ، فَعُمِرَ بِكَ نَادِيكَ، ولا فَقَدَ خيرا واديك، وسَكَنْتَ في أرض كثيرة الوُجُروالدِّحَال[2]. ييأس الكلب الصائد أن يصل بها إليك، وَمَنَعَك فيها الضراءُ[3]. والأَشَبُ[4]. من أن يطمع فيك جارح من الطير، وساعفتك الثُّرْمُلَةُ[5]. ولا نَأَتْعن وجَارِكسَمَلَةٌ[6]. ومرَّتْ بِفِنَائِكَ الرِّطَانَةُ (7).وقد نُهِقَ[8]. نُهِقَ[8]. منها بعير بل وُقِصَ[9]. فتركوه في أرضك لِتَأَنَّقَ في غَرِيضٍ من اللحم مَصِيفَكَ، وتَدَّخِرَ للشتاء ما شئت، وغفل عنك حافظ المَكْثُوءَةِ[10]. حتى تلج وأنت آمن فتصيبَ من القُشْعُرِ[11]. والحَدَجِ[12]. ما تريد، ورَقَدَ نَاطُورُ[13].

1- ميمونا: مباركا.

2- الوُجُر: جميع وجار، والدحال: جمع دحل، هوة في الأرض يضيق أعلاها ويتسع أسفلها.

3- الضراءُ: ما يواريك من شجر ونحوه.

4- الأَشَبُ: ملتف الشجر.

5- الثُّرْمُلَةُ: هي أنثى الثعلب.

6- سَمَلَةٌ: بقية الماء في الحوض.

7- الرِّطَانَةُ: الإبل التي تحمل من بلد إلى بلد: وإذا كثرت الإبل وكانت رفاقا ومعها أهملها فهي الطانة والرهطون.

8- نُهِقَ: تدل على البناء للمجهول أثله الحمل فأعيا.

9- وُقِصَ: دق عنقه.

10- المَكْثُوءَةِ: مطموسة في وقوفها: موضع القثا.

11- القُشْعُرِ: صغر القثا.

12- الحَدَجِ: صغار البطيخ قبل ان ينضج.

13- الجنة: بمعنى البستان.

الجنة [1]. عَنْكَ حتى تَمكَّنَ في رَأْدِ نَهَائِكَ من وَفْرِ وَيْـنٍ[2]كَـدَوَارِعِ المـدام
ومُلَاحِيِّ القِرْطَةِ[3]في آذان الكَوَاعِبِ ذَوَاتِ الخِدَامِ» [4].

استعمل المعري في هذه الفقرة الضمير المستتر للمفرد الغائب –هو– الدال على الثعلب المذكور سابقا في (عمر، فقد، نأت، مرت، نهق، وقص، غفل، رقد)، بعد البشارة التي أتى بها الثعلب إلى الشاحج ينطق الشاحج ليجيبه بقوله: فبورك صباح الثعالب، ثم يصفه بالمبارك –الميمون– ويصف مسكنه الذي هو حفرة تحت الأرض يسمى الوجر، يضيق أعلاها ويتسع أسفلها لكي ييأس الكلب ومن الوصول إليه، وأن الإبل في سفرها من بلد إلى بلد عند إصابة إحداها يتركونها كقوت له يأكل منها في الصيف ويدخر للشتاء منها ما شاء، وأثناء الغفلة يدخل بأمان ويأخذ ما يريد لأن البستاني نائم، وكل هذه الأفعال تحيل إلى مرجع واحد هو الثعلب تؤدي نفس الوظيفة وهي إحالة داخلية وظفت من أجل التوضيح والتفسير والبعد التداولي جراء استخدامها أن الثعلب لم يذكر باسمه بل أشير إليه بهذه العناصر الإشارية تفاديا للتكرار وتأكيدا على أهمية السياق في تحديد المعنى.

الضمير المتصل في الألفاظ: جاء في رسالة "**الصاهل والشاحج**" **لأبي العلاء المعري**": **«وللسَيدِ "عَزِيزِ الدَوْلَةِ" أَعَزَ اللّهُ نَصرَهُ، فَضْلٌ عَلَى غَيْرِهِ من الملوك مِثْلُ فضل الطويلِ على المنهوكِ، لا بل أعظم وأكثر /.../وجميع هذه الأبيات المذكورة من بيوت العَرَبِ وبُيوتِ الشعر، على قِصَرِهَا وطولها، وخِفّتِهَا وثِقَلِهَا، سَيَارَةٌ فِي أَرضِ الله»**[5]. تكمن الغاية وراء تشبيه عزيز الدولة بأحد البحور الشعرية ذاك أن كرمه وعطائه لا يفنى كالبحر الذي مهما غرفنا من مائه لا ينتهي، وذاك البحر هو البحر الطويل وشبه بقية

1– وَيْنٍ: تكتب بالوارو أو الراء تعريف في القاموس على أنها العنب الأسود.
2– القِرْطَةِ: جمع قرط، حلى الأذن.
3– الخِدَام: الخلخال بالكسر.
4– المصدر السابق، ص 412–413.
5–المصدر السابق، ص 517–518.

الملوك بلقب من ألقاب البيت الشعري ألا وهو المنهوك، وهو البيت الذي ذهب ثلثاه وبقي ثلثه كحال بقية الملوك الغير مكتملة بحاجة لمن يساعدها ويعينها، وعزيز الدولة هو المبادر دائما في تلك الإعانة، ساهم الضمير المتصل الدال على الغائب "الهاء" في الكلمات (قصرها، طولها، خفتها، ثقلها) في ربط الجمل ببعضها وهو إحالة نصية قبلية تحيل إلى الأبيات المذكورة في بحور الشعر وتفادي تكرارها.

- **ضمير الغائب المنفصل:** جاء في قول الكاتب: «**فكأني بأبي عُقْبَةَ**[1]. **وهو مَشْدُودٌ الرِّجْلَينِ إلى أَرجُلِدَجَائِجَ ثلاث أو أربع وهو مُعَلَّقٌ من مؤَخِرَةِ إكاف**[2]. **وقد أَفْرَطَوهو صَواحبُهُ**[3]. **في الصراخِ**»[4]، ذكر ضمير الغائب المنفصل "هو" مرتين للدلالة على مرجع واحد هو أبو عقبة لكي يصف حالته، وقد وظف أبو العلاء المعري هذا الضمير بالذات دون غيره لأنه الضمير المختص في سرد الأحداث بالتفصيل بلا حدود، فلولا وجوده لاضطر الكاتب إلى ذكر حالة وحيدة لأبي يعقوب لا غير، تفاديا للتكرار الذي يؤدي إلى ركاكة المعنى.

نخلص إلى أن الإشاريات الشخصية سبيل إلى الاقتراب من فهم المتلقي للنص وقد وظفت بكثرة في متن الرسالة تارة على صيغة ضمير المتكلم وأخرى ضمير المخاطب ومرة أخرى على صيغة ضمير الغائب وتشير كل هذه الإشاريات إلى اثنين هما: "الصاهل والشاحج" على صيغة المتكلم والمخاطب، وإلى الثعلب على صيغة الغائب، ذاك أن الرسالة جاءت على لسان الحيوان لتعرض الوضع السياسي والاجتماعي لمدينة حلب وخوف أهلها من غزو الروم المتوقع حدوثه وجاءت أيضا لرفع مظلمة أبناء اخوة أبي العلاء المعري لعزيز الدولة حول الديون المفروضة على أرضهم، فصنف المعري هذه

1- بأبي عُقْبَةَ: كنية للديك هنا، وأوصل العقبة الطائر: مسافة ما بين ارتفاعه وانحطاطه.

2- إكاف: الإكاف والوكاف، الجمع أكف، وقد أكفت الحمار، شددت عليه الإكاف.

3- صَواحبُهُ: صواحب أبي عقبة الدجاج.

4- المصدر نفسه، ص 429.

الرسالة لطلب منهم، ونستنتج كذلك أن تلك العناصر الإشارية الموظفة في ثنايا الرسالة عبارة عن مبهمات فهي خالية من أي معنى في حد ذاتها والسبيل إلى كشف معناها هو السياق، إذ تبقى غامضة دون تحديده لها، ومن العناصر الإشارية التي وظفها المعري في متن الرسالة: ضمير المتكلم "أنا" و "نحن" وضمير المتكلم المتصل التاء، أسماء الإشارة ضمائر المخاطب "أنتم" وكاف الخطاب وضمير المخاطب المتصل التاء، أسلوب النداء وضمائر الغائب (الضمير المستتر في الأفعال، ضمير الغائب المتصل الهاء الضمير المنفصل هو، هي).

وتحمل هذه الإشاريات الشخصية بعدها التداولي من خلال تكفل السياق بتحديد مرجعها وتنقل الكاتب في استعماله لهذه الضمائر تبين لنا ثقافته الواسعة وإلمامه بمفهوم كل منها لتسهيل العملية التواصلية وبلوغ مقاصده التي يرمي إليها وهي إيصال مظلمته وعرض الأحوال السياسية والاجتماعية العزيز الدولة.

2- الإشاريات الزمانية: تعتبر اللغة نسقا من الإشاريات، الغاية من وراءها تحقيق التواصل والتفاهم بين الناس، لها ارتباط وثيق بالدرس التداولي إذ تهتم بإيضاح مقاصد المتكلم التي تختلف باختلاف السياق الذي تصاغ فيه وبفهمها تتم العملية التواصلية على أكمل وجه، وتتعدد هذه الإشاريات لتنقسم إلى ثلاثة أقسام سبق وأن حددنا مفهوم كل منها، وكذا عرضنا مجموعة من النماذج حول النوع الأول منها وهو الإشاريات الشخصية وبعد الانتهاء من تعدادها سنتطرق في هذا الجزء إلى عرض تعريف بسيط للنوع الثاني منها ألا وهو الإشاريات الزمانية وتقديم مجموعة من النماذج التي اشتملت عليها رسالة "الصاهل الشاحج" لأبي العلاء المعري.

تعرف الإشاريات الزمانية بأنها مجموعة من «الكلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم، فزمان التكلم هو مركز الإشارة deictic center

الزمانية في الكلام، فإذا لم يعرف زمان التكلم ومركز الإشارة الزمانية التبس الأمر على السامع أو القارئ. فقولك مثلا "بعد أسبوع" يختلف مرجعها إذا قلتها اليوم أو قلتها بعد شهر أو بعد سنة وكذلك إذا قلت: **(نلتقي الساعة العاشرة)** فزمان التكلم وسياقه هما اللذان يحددان المقصود بالساعة العاشرة صباحا أو مساء من هذا اليوم أو من يوم يليه، وزمن الفعل **نلتقي** ينفي أن يكون اللقاء قد حدث فعلا، بل يصرف زمن اللقاء إلى زمن لم يمض بعد، ومثل ذلك كلمات مثل: أمس وغدا، والآن، والأسبوع الماضي»[1].

فعادة ما يلجأ المتكلم في تواصله إلى توظيف عناصر تحتوي على دلالة الزمن لتحدد لنا وقت التلفظ وتتمثل هذه العناصر في الظروف أو ما يسمى بالمبهمات التي تنقسم إلى قسمين:

أ- **الظروف المبهمة:** تعرف بأنها: «ما دل على قدر من الزمان غير معين، نحو: حين – ووقت – ولحظة»[2].

ب- **الظروف المختصة غير المبهمة:**من التعريفات المقدمة للظروف المختصة مايلي: «ما دل على مقدار معين محدود من الزمان ومثال المختص: الشهر، السنة، اليوم، والعام والأسبوع»[3]. تكمن الغاية من وراء توظيف هذين النوعين من الإشاريات الزمانية في تحديد مرحلة العملية التواصلية، ذلك أنها ترتبط بزمن معين، ولو لا عملية تحديده لتعذر على المتلقي فهم الرسالة التي يحاول المتكلم أو الكاتب ايصالها إليه، فالزمن إذن يعد عنصرا أساسيا في كل خطاب تواصلي، والمتأمل لرسالة "**الصاهل والشاحج**" يلاحظ احتوائها على العديد من الصيغ الإشارية الزمانية إذ تنوعت تلك الصيغ في أغلب

---

[1]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 19-20.

[2]- أحمد الهاشمي: القواعد الأساسية للغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 205.

[3]- محمد محي الدين عبد الحميد: التحفة السينية بشرح المقدمة الأجرومية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، د ط، 1428هـ، 2007م، ص 149.

مشاهدها، إذ تظافرت الظروف المبهمة والمختصة في الرسالة لتخلق للقارئ جوا من المتعة والغموض، فبعد التحية والسلام التي ابتدأ بها المعري مشهده والصلاة والسلام على رسول الله اختص عزيز الدولة بالتسليم في قوله: «**أسلم على الحضرة العالية تسليم العاجز المقصر، كما ينظر الهَادِي المُدْلِجُ[1] إلى فَرْقَدِ اللّيلِ[2]**»[3]، نستنتج من خلال هذا القول أن المعري يشبه نفسه بالمسافر في الليل الضال لطريقة بحاجة لمن يساعده ويشبه عزيز الدولة بالنجم المضيء الذي تكمن وظيفته في إهداء الضال لطريقه، والعنصر الإشاري الدال على الزمن هنا هو **الليل**، ولم يوظف بمعناه العام وإنما كنوع من التورية وعرض للأمثال كما شرحنا، كما أن **الليل** يدل في الغالب على الحزن والأسى إلا أنه وظف في هذه العبارة للدلالة على الأمل وإيجاد حل للمشكلات فلولا فرقد الليل لبقي المدلج ضائعا، ويتمثل بعده التداولي في التأكيد على أهمية السياق في تحديد مدلول العبارة وفهم قصد الكاتب الكامن وراء توظيفها، فهذه اللفظة مزدوجة الوظيفة، فبالإضافة إلى مرجعها الزماني تدل على النجم الموجود في السماء الذي لا يظهر إلا في فترة الليل.

وفي موضع آخر يقول: «**قد أَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَينين، فهل يُضِيءُ لمن لا عَينين له؟ ولستُ مِمَّنْ يُعتبُ عليه، إنما يُعَاتبُ الأَديمُ ذو البَشَرَةِ[4]. ولا قُوَةَ عند العُشَرَةِ[5]. وفي شهري نَاجِرِ[6]. تلجأ تَكفأُ[7]. الظُّعُنُ إلى قُرَاسِ[8]. وإذا طلع قَلْبُ العرب حُبَتْ إلى**

1- المُدْلِجُ: الذي يسير ليلا والدلج الساعة من آخر الليل.

2- فَرْقَدِ اللّيلِ: نجم قريب من القطب الشمالي، ثابت الموقع تقريبا ولذا يهتدى به.

3- المصدر السابق، ص 81.

4- ذو البَشَرَةِ: بشرة الأديم ظاهره الذي عليه الشعر، يضرب لمن فيه مراجعة ومستعتب.

5- العُشَرَةِ: واحدة العشر: شجر فيه حراق –هش– يختطب به ويحتشى في المضاد.

6- شهري نَاجِرِ: من أشهر الصرف، ويقال لكل شهر من أشهر الصيف، ناجر، والنجر، بالتحريك: عطش الإبل والغنم فلا تكاد تروى، فتمرض عنه فتموت.

7- تَكفأُ: تلجأ

8- قُرَاسِ: القارس والقريس البارد، والظعن والأظعان، جمع ظعينة: الهودج ويقال المرأة، ظعينة، مادامت في الهودج.

القوم تِهامَةٌ»[1]. استخدم أبو العلاء المعري في هذه العبارة ثلاثة عناصر إشارية دالة على الزمن تدخل ضمن الظروف المختصة غير المبهمة ألا وهي: (الصبح، شهري ناجر، قراس)، استعمل الكاتب العنصر الإشاري (الصبح) للدلالة على بعده الإشاري لا للدلالة على طلوع الشمس وسطوعها على الكون وإشراقهالتذهب به ظلمة الليل وهدوءه، وإنما أراد أبو العلاء المعري توظيفه للدلالة على التماس العذر لنفسه عند أبناء أخته لقلة حيلته وعجزه عن إيصال مراده بنفسه، ذاك أنه كفيف لا يستطيع مغادرة محبسه، فبالتالي فهو مضطر إلى الاستعانة بغيره عكس المبصر الذي يستطيع الوصول إلى عزيز الدولة فلا لوم عليه فهو غير مستعتب.

أما الثنائية الضدية المتمثلة في الصيف والشتاء وظفت لتدل على مرحلة الانتقال من حال إلى حال، دل العنصر الإشاري المختص (شهر ناجر) على الفترة الكئيبة والصعبة التي يحيونها إذ تموت إبلهم وغنمهم نتيجة ندرة المياه فلا يبقى لهم أي مصدر للتكسب، بالإضافة إلى عطش الأرض وقلة انتاجها، فبهذا لا يجنون إلا المال القليل الكافي لسد حاجياتهم وعدم استطاعتهم دفع ضريبة أرضهم القاحلة، يدل الصيف إذن على الماضي التعيس، إلا أن هذه الفترة لا بد أن تنتهي وتمر ليعقبها فصل آخر ألا وهو فصل الشتاء الذي تحن إليه قلوبهم فتراهم يرحبون بقدومه ويحبونه عكس فصل الصيف، فالشتاء في هذا القول يشير إلى الأمل المنتظر والمستقبل الزاهر الذي ينتظرهم ليواصلوا مشوار حياتهم .

بعد انتهاء أبي العلاء المعري من تعداد صفات أرضه نجده يخبرنا عن الدابة التي يستخدمها سكان تلك الأرض من أجل السقي وهي بهيمة وما تتحمله من مشاق ورغبتها في أن تكون عند مُلَّاكٍ آخرين يبعدونها عن هذا البؤس، ثم يذكر لنا أبو العلاء المعري أن بؤس وكلل تلك البهيمة مرتبط بها لا يمكن أن يفارقها حتى تغطى عينها، ويقصد بذلك

1- المصدر السابق، ص 82.

موتها وذاك في قوله: «**تودُ بَهيمةُ أصْعَدَتْهُ، لو كانت في سوادِ ذي القرنينتحمل أوتادَ خيامٍ أو غيرهَا من أثقالِ اللئام، وتسافرُ من المشرق إلى المغربِ، وتُرَاحُ من هذا البُؤْسِ الدَرْبِ، إذا كان سَفَرُهَا لا يَنْفَدُ وعذابها يُجَدَدُ، ولا يقنعُ لها القدرُ بالأَيْنِ**[1]، **حتى يَأمُرَ بتخميرِ العَيْنِ**[2]، **فالخطوة من العبء قَصيرةٌ، والعَيْنُ عمياءُ بصيرة، وهي في أوقاتِ النَجْرِ**[3]. **يُكَفُ بصرُهَا عند الفَجْرِ فتنظر إلى القمر دون الشَمسِ، ويَومُهَا في الشقوةِ نظيرُ الأَمسِ**»[4]، يتضمن من هذا القول عنصرين إشاريين دالين على الزمن هما (أوقات النجر، الأمس) لكي يعبر عن الوقت الذي تفضله البهيمة إذ تفضل العمل في أوقات النهار لأنها ترى جيدا ما يحيط بها عكس أوقات الفجر الدالة على الوقت المبكر من النهار الذي يؤدي إلى نقصان بصرها فيه، كما دلت الثنائية الضدية (اليوم والأمس) على عدم تغير حالها فهي شقاء دائم ومستمر، اعتمد المعري في هذا المثال على الإشاريات الزمانية المختصة على عكس المبهمة لأن الأولى تمكنه من تحديد الوقت بدقة حتى يبلغ مراده.

في موضع آخر نجد الشاحج يخاطب أبا أيوب ويلومه على سماعه لكلام الفاختة وأخذ رأي أحد الخصمين على حساب الآخر، فيعيبها لأنها من ذوات الريش فيخاطبه قائلا: «**لو كان لي سبيلٌ ولكَ إلى أن نتحاكمَ إلى قاضي البهائم أبي الحِسْلِ* إذًا لحاكمتُك إليه، فلعله كان يَحْكمُ لي عليك بأن تنوبَ عني شهرًا أو أكثر من شهرٍ، فتعالى اللّهُ من أين قُدِّرْتَ لي في هذا اليَوْمِ؟ إن قالت العَرَبُ: جَاءَتْكَ بحَائِنٍ رِجلاه**»[5]، يقصد الشاحج من خلال هذا القول أن يبين لأبي أيوب أن الفاختة لا يمكن أن تكون حكما وإن كان بإمكانهما

1- الأَيْن: الإعياء والكلال.

2- بتخميرِ العَيْنِ: تخمير عين الدابة، تغطيتها، يقال أخمر الأمر أي أضمره، وأخمرته الأرض، وارته وكل ما ستر شيئا فهو خمارة.

3- النَجْرِ: بالتسكين: الحر الشديد، وبالتحريك عطش الإبل والغنم فلا تكاد تروى.

4- المصدر السابق، ص 90.

* أبي الحسل: الضب.

5- بحَائِنٍ رِجلاه: أول من قال المثل "عبيد بن الأبرص" حين قصد النعمان بن المنذر ليمدحه فوصل إليه في يوم بؤسه.

الاحتكام إلى قاضي البهائم الظب لكان ذلك خيرا له، ذك أنه سيعطيه الحق وسيجعله في مكانه لمدة شهر أو أكثر ليحس بالتعب والكلل، الذي يعتريه ووظفت العبارة (من أين قدرت لي في هذا اليوم؟) للدلالة على بؤس الشاحج في اليوم الذي أراد أبو أيوب مدحه فيه ذاك أن العرب تقول جاءتك بحائن رجلاه للدلالة على القلق والكلل الذي حصل له في ذاك اليوم استخدم أبو العلاء المعري نوعين من الظروف المختصة الدالة على الزمن في هذا المثال هما "شهرا أو أكثر من شهر" و "اليوم" اللذين لا يفهم معناهما إلا من خلال العودة إلى السياق الذي قيلت فيه، فكلمة اليوم تحيلنا الى الحالة الشعورية والنفسية للشاحج في فترة زمنية معينة.

ثم يفصل لنا أبو العلاء المعري في متن رسالته الحجج التي تجعل من عزيز الدولة النظر في شكاية أبناء أخته، ذاك أن أحدهم يخاطبه قائلا: «**قد عزمتُ يا خالي أن أَسْتَودِعَكَ رسالةً إلى حضرة هذا الأمير، لِتُذَكِّرَ بي وُلَاةَ العدل (فإن الذكرة تنفع المؤمنين) سورية الذاريات، الآية 55/ لَعَلَ عِلَاوَةً[1] تُحَطُ عن فَودَى مُثْقَلٍ، ونَزْعًا بالغَرب يُخَفِفُعن خابطِ عِضَهٌ، وراحةً ينالُها المُتعَبُفي النَهَارِ والظَلِمِ، وعَيْنًا تُطْلَقٌ من السجن الدائم فتبصر الوضَحَ، فقد بلغ نَسيس الحُشاشةِ[2]. وافتقر إلى الكلمة رَبٌّ الكلمةِ، واضطُرَ عَارٍ**

إلى سَحْق النمرِقوأُلجئَ مالكُ النخلِ الواعِدِ إلى التمرة، ولكل ذي عمودٍ نَوَى. وكذلك جَرَتْعادةُ الزمنِ بتغييرِ الكِينةِ[3]»[4]، استخدم المعري في هذا القول نوعين من الصيغ الإشارية الدالة على الزمن إحداهما مختصة والثانية مبهمة، تمثلت الأولى في لفظتي (النهار والظلم) تدلان على تذكير عزيز الدولة بالنظر في الرسالة التي قدمها المعري

1- عِلَاوَةً: ما وضع بين العدلين والنزع بالغرب، الجذب بالدلو.

2- نَسيس الحُشاشةِ ،: بقية النفس.

3-الكينة: الهيئة.

4- المصدر السابق ص، 96-97.

إليه، إذ تدل هذه الثنائية الضدية على أمل أبناء أخته بعد نظر عزيز الدولة في مطلبهم. فاستجابته لهم ستريحهم من الصعاب والمشقات التي يتحملونها وتشعرهم بالراحة في الليل والنهار فقد بلغوا أشدهم وآخر أنفاسهم.

أما الثانية فتمثلت في الزمن الذي يحمل دلالة التحول والتبدل فلا وضع باق على حاله، ذاك أن الزمن تارة يفرح الناس ويعصف تارة أخرى عليهم برياح الهموم والمشاكل، لكنها ستزول إذ مد لهم عزيز الدولة يد المساعدة والعون.

بعدما أتم المعري حديثه عن الحالة التي يعيشها أبناء أخته وما يعانونه من مصاعب ومعرفتهم التامة بأن عزيز الدولة هو الأمل الوحيد بالنسبة إليهم وكذلك يقينهم بأن الزمن غير باق على حاله فلا بد أن تأتي ساعة الفرج، يعرض لنا في المشهد الثاني من الرسالة محاولة إيقاع الفاختة بين البعير (أبي أيوب) والشاحج ووصولها إلى مرادها وضج الشاحج لصنيع أبي أيوب وغضبه الشديد منه وإخباره إياه بأنه لا يستطيع أن يغفر له إلا بحمل رسالته النثرية إلى عزيز الدولة التي كلف الصاهل قبله بايصالها إلى عزيز الدولة، لكنه لم ير بركة في ذلك على حسب قوله وأدى إلى الإيقاع بينه وبين الفاختة مما جعلها توقع فتنة بين الشاحج والبعير، وفي ذلك يقول الشاحج:

«كلا يا أبا أيوبَ، ولكني أجعلُ عِوَضًا من ذلك تكليفَكَ حاجة يَسيرةً إذا قضيتَهَا نَعَشْتَ العَثْرةَ[1].وجَبرتَ الكسِيرَ واستللتَ الضعينة ومحَوتَ الغِمْرَ[2]. وقد كُنْتُ كَلَّفتُ نحوا منها الصاهل وأدليتُ إليه بالخُئُولَةِ، فَرَدَّ الولَغَةَ[3] وهي صِفْرٌ من البِرِ

[1]– نعشت العثرة: جبرتها.

[2]– الغمر: الحقد.

[3]– الولغة: الدلو الصغيرة.

والوَفْضَةَ[1] وهي خاليةٌ من سَهمِ المعاونَةِ، فالله جازِيهِ بما صَنَعَ /.../ وأعانتْهُ على أذّيَتِي الفاختةُ /.../ ولست أسألك ما سالت الصاهل من حَمْلِ الشعْرِ،لاني لم أر بركة في ذكره: أدَّانِي إلى طول مناقضة وأوقع بيني وبين الفاختة حتى وشَت بي إليك /.../ فعدلت عن ذلك إلى تحميلك أخبارا مستطرفةٍ، لها في السمع ظاهرٌ ولها في المعنى باطنٌ أَنْحُو بها ما نحاه "ابن دريد" في "كتاب الملاحن" و "ابن فارس الرازي" فُتْيَا فقيه العَرَبِ) وإذا ألقيتُما تَيَسَّرَ منها عندي، فأحسِنْ حِفْظَهُ وخَزنَهُ»[2].

يطلب الشاحج من الإبل في هذا القول أن يحسن حفظ ما يلقيه إليه وتخزينه بشكل جيد وبالإضافة إلى ذلك يأمره برفع صوته أثناء حديثه مع عزيز الدولة حتى يفهمه وأن لا يحدث شيء بينه وبين عزيز الدولة كما يحثه على عدم الشرب الكثير لأنه يساعده على النسيان السريع، فيوافق أبو أيوب اعانته بإيصال مظلمته إلى عزيز الدولة فيلقي عليه الشاحج نص رسالته . مستخدما الألغاز والتورية في عرض مجموعة من الأخبار حدثت له أو مع غيره من الناس والبهائم والطير وسنكتفي بذكر الأخبار التي احتوت على الصيغ الدالة على الإشاريات الزمانية التي تعتبر محط دراستنا، ومن تلك الأخبار قول الشاحج: **«وكان في هذا البلد جندي أبح [3]، أقام أربعين سنة يدخل على القضاة والأمراء، وهو في ذلك لا يذوق النوم»**[4]. وظف العنصر الإشاري المختص (أربعين سنة) لكي يدل على الفترة التي قضاها ذلك الجندي بعيدا عن النوم وهي فترة لا يمكن أن تتبادر لذهن عاقل، ذلك أنها مدة زمنية طويلة جدا، وتحمل بعدها التداولي من خلال توظيفها كعنصر

---

[1]- الوفضة: كالجعبة من آدم، جمعها وفاض.

[2]- المصدر السابق ، ص 217-220.

[3]- أبح: مصاب ببحة (صوت أبح).

[4]- المصدر السابق، ص 228.

إشاري يدل على تفاني ذلك الجندي في عمله، فلا ينام إلا ساعات قليلة طوال تلك الفترة، وقد ضربت العامة هذا المثل للتعبير عن شدة تحمله وصبره وإخلاصه، وتوظيف تلك المدة الزمنية لم يكن على وجه التحديد والدقة، لأن استعمالها الدقيق غير صالح فلا يمكن للإنسان أن يبقى بعيدا عن النوم لمدة تتجاوز الأسبوعين كأكثر حد ومن الأخبار التي ذكرها الشاحج أيضا نجد قوله: «**وفي قريةٍ من هذا الإقليمِ أَتَانٌ يشهد الثِّقاتُ أن لها أَكثرَ من ثَلاثِ مائةِ سنةٍ، وحماران يُوفيان على هذه المُدَّةِ، ولا عجب من أمر الله، قد مَرَّتْ بنا منذ سِنِينَ جاريةٌ شَهِدَ خلق كثير أن عمرها زائدٌ على ألف سنةٍ**»[1].

احتوى هذا القول على مجموعة من الإشاريات الزمانية الدالة على زمن مضى وانقضى إذ ساعد توظيف تلك العناصر المختصة على تحديد الأعوام التي عاشها كل من أنثى الحمار والجارية، والمتتبع لمدلول كل منهما يجد المبالغة في توظيفه لطول الفترة فكيف يمكن لأنثى الحمار أن تعيش ثلاثمائة سنة وكيف لجارية أن تعيش ألف سنة، فالله قادر على أن يحييهما تلك الفترة أو أكثر فهو المحيي والمميت، وأنه إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون، كما نلمح تواجد عنصر إشاري مبهم في القول السابق وهو (هذه المدة) الدالة على عيش الحمارين أكثر من أنثى الحمار.

يقول الشاحج في موضع آخر: «**وكانت في حِمْصَ عجُوزٌ لها دجاجتان أقامتا في تابوتٍ نحوًا من ستة أشهرٍ أو سبعةٍ بغير عَلَفٍ ولا ماء، ثم خرجت بهما إلى السوق فباعتهما، ولم يَنْقُصْ طُولُ الحبس ثَمَنَهُمَا**»[2]. دل العنصران الإشاريان المتمثلان في العددين (سبعة وستة) ولفظة (أشهر) على المدة الزمنية التي قضتها الدجاجتان في التابوت، وكان هذا التوظيف على وجه التقريب لا التحديد فمن الغريب أن تعيش تلك

[1]–المصدرنفسه، ص 229.

[2]– المصدر السابق ، ص 229.

الدجاجتان في مكان مغلق طوال تلك الفترة والأغرب عدم نقصان وزنهما وبقائهما على قيد الحياة على الرغم من عدم أكلهما وشربهما، وبيع العجوز لهما بنفس السعر السابق.

المتتبع لكل الأخبار التي سردها الشاحج للبعير يلاحظ اعتمادها على الأسطورة والتورية وعدم تصديق العقل لها، ومثل هذه الأخبار التي تحتوي على الإشاريات الدالة على الزمن الكثير الذي لا يحصى ولا يعد، وقد اكتفينا بعرض ثلاثة منها خشية الإطالة، ولكن السؤال المتبادر إلى الذهن والمطروح هنا: **أهذه الأخبار صحيحة؟ أم أنها ضرب من الخيال والأساطير وماهي الغاية من وراء عرضها؟ أتكمن في أخذ الحكمة أو إعمال العقل أو التدبر في خلق الله ومعرفة قدرته التي تتجاوز قدرة جميع المخلوقات؟**

ولنتمكن من الإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من مواصلة القراءة والتمعن في الرسالة، فالمتمعن فيها يجد أن أبا أيوب قد أعياه فهم محتواها وفك شيفراتها، مما دفعه إلى وصف الشاحج بالأحمق والكاذب وبالقائل للباطل وأنه لا يمكن أن يوصل هكذا رسالة إلى عزيز الدولة، ويتمادى البعير في نعت الشاحج بأبشع الصفات كوصفه بالفاسد والساقط والآخذ لكلام غيره، ثم يبين له العجب الذي وجده في تلك الأمثال، ويذكرها بالترتيب واكتفينا بذكر العجب الموجود في الأمثلة التي وظفناها سابقا لانها تشتمل على ما يتطلبه موضوع بحثنا.

يتساءل البعير حول استطاعة الجندي البقاء شهرا أو أكثر من شهر دون نوم ويجيب عن هذا التساؤل بنفيه لهذه الصفة عن الإنسان، ويرد على الشاحج بقوله أن عيش ذلك الجندي الأبح أربعين سنة لا يذوق فيها النوم شيء لا يمكن لأحد أن يسلمه له، ويزعم أن خبره خاطئ لأن الحيوان لا يستطيع ذلك فما بالك بالإنسان، ويدعم رأيه بعرض واقعة حدثت لـ: حسام بن الحارث" اذي يملك أخا وهو ملك "حمير"، لكن أهل مملكته اشتكوا منه ظلمه وطلبوا من "حسام" أن يريحهم منه ومن أفعاله الوقحة واللاإنسانية وأن يأخذ هو

الحكم بدله، وكان في حمير رجل يسمى بـــ " ذو رعين" لـــه علـــم بحكايـــات القـــدامى وبصيرة، ولما علم بعزم حسام على قتل أخيه قال له بأن "حمير" تزعم بأن من قتل أخـــاه سلب منه النوم إلى أن يموت، لكن "حسام ابن حارث" لم يستجب لذي رعين وأصغى لقول العامة من المملكة، وقام بقتل أخيه وأصيب بالأرق بعد تلك الحادثة ولم يستطع النوم بعدها وسُلِّطَ عليه السهر ولام أهل مملكته إلا ذو رعين لأنه حذره من قيامه بذلك الفعل، ويروى في خبر آخر أنه بقي مستيقظا إلى أن كفر عن ذنبه وقام بقتل من أمره بذلك، فتمكن مـــن العودة إلى النوم بعدها.

يضع البعير أبو أيوب عدة احتمالات لأصل الأتانة التي ذكرها الشاحج وهي:

- أنها أنثى الحمار الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله:﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ سورة البقرة، الآية: 259.

-أنها أم حمار المسيح، أم ابنته أم أخته.

إلا أنه يرى بأن القول الأول هو الأصح وهو إرجاع الفترة الطويلة التي عاشـــتها تلك الأتان إلى قدرة الله تعالى، فبيده ملكوت كل شيء وهـــو المســـؤول عـــن الإحيـــاء والموت، ولايمكن أن يتصف بشر بمثل هذه الصفات كما زعم المسيحيون، ولا يمكـــن أن تكون تلك الأتان حمارة (بلعم) فرغم عيشها عمرا طويلا إلا أن الفقهاء قد ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل أمثالها من البهائم.

وفي أمر الحمارين السابقين الذين ذكرهما الشاحج يرى البعير أنه لمن العجب أن أحدهما "يعفور" حمار النبي صلى الله عليه وسلم، والآخر حمار "المسيح" النبـــي عيســـى عليـــه السلام، وأن هذين الحمارين هما من آل الأتان وأخويهما لا محالة، فيستغرب كيف لهمـــا أن يعاصرا كلا النبيين وهذا لا يمكن، فاستشهد بالقصتين القديمتين أن الفيل الـــذي ركـــع

"**لنعمان بن منذر**" لم يعش اكثر من أربعمائة سنة وعير أبي سيارة العدواني التي دفع عليها من المزدلفة أربعين سنة، ومنه نستنتج أنه لا يمكن أن يعمر أكثر من ثلاثمائة سنة.

يتمثل رأي البعير في القضية المتعلقة بالدجاجتين اللتين بقيتا ستة أشهر أو سبعة لا تأكلان ولا تشتريان في أنه ادعاء لا غير فليس في طاقة أي حيوان أرضي أن يقيم فترة زمنية طويلة بلا غذاء وأن صفة عدم الأكل والشرب ترتبط بالملائكة.

وأن بعض النصارى يدعون أن المسيح بقي أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب، واختلفت الحكاية حول تلك الواقعة، وتوالت بعده هذه الأمثلة -آراء البعير أبي أيوب- حول الأخبار التي ألقاها الشاحج عليه.

بقدرة الله ينطق الشاحج ويرد على أبي أيوب بأنه لم يوظف الأخبار على نحو "ابن دريد" و "ابن فارس" وإنما عمد إلى التورية، والالغاز في عرضه لها، وأما عن الصفات السيئة التي قد وصفه بها فماله سوء الصبر وعدم الرد لكي لا تنقص قيمته ومكانته ذلك أن الله قد أمرنا بالتحلي بهذه الصفة الكريمة في قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾سورة يوسف، الآية 18، ثم يفك الشاحج ويحل الغاز رسالته لأبي أيوب ويعطي دلالة كل لفظ مستخدم على حدى، ويعلق البعير على ما سمعه ويستبعد أن يفهم عزيز الدولة منطق البهائم، فيرد عليه الشاحج بتعداد الصفات التي سمعها عن مدح العامة لعزيز الدولة إذ يشبهونه بالأم العطوف على أبنائها، كما يشبهونه بالأسد في الشجاعة وبالنجم المضي الهادي لمن يسير ليلا، كما يعددون له مزايا لا يمكن أن تجتمع عند أي بشر، ويشبهون حكمته بحكمة سليمان عليه السلام، فيرد عليه أبو أيوب بعدم إنكاره لتلك المزايا وزعمه بأنه لا يستطيع فهم أصوات الحيوان، فالله هو الوحيد القادر على فهمها بالإضافة إلى سيدنا سليمان عليه السلام.

بعد رد أبي أيوب هذا ييأس الشاحج ويفهم بأنه غير قادر على إعانته ومساعدته، ثم تستمر أحداث الرسالة إذ يلتقي الشاحج بالثعلب ويروي له فحوى شكايته، وسنتطرق لمجريات ذلك الحوار في موضع آخر من دراستنا.

وظفت الإشاريات الزمانية المختصة المشروحة سابقا لتدل على المدة الزمنية التي جرت فيها وقائع وأحداث الرسالة واستعملت بدلالات مختلفة وبشكل لافت للانتباه من أجل أن يبلغ أبو العلاء المعري مراده من وراء كتابة رسالته.

بالإضافة إلى الإشاريات المختصة نلحظ أن أبا العلاء المعري قد عمد إلى توظيف نوع آخر من الإشاريات الدالة على الزمن ألا وهي الظروف المبهمة التي يتحدد مدلولها بالعودة إلى السياق الذي قيلت فيه فالمبهم من ظروف الزمان ما دل على مقدار غير محدد بالدقة على عكس المختص المتمثل في فترة زمنية محددة كالليل والنهار والسنة والشهر كما ذكرنا سابقا، ومن أمثلة الظروف المبهمة مايلي:

وظف أبو العلاء المعري الظرف الإشاري المبهم في المشهد الثاني من مشاهد هذه الرسالة في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ سورة البقرة، الآية 189، نزلت هذه الآية الكريمة نتيجة سؤال معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم "الأنصاريين الذين قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلأ نورا ثم يعود دقيقا كما بدأ ولا يكون على حال واحدة؟

فأنزال الله هذه الآية **(يسألونك عن الأهلة)** ،هلال: جمعه أهلة، سمي بهذا الاسم لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته **(قلهي مواقيت للناس والحج)**، مواقيت جمع ميقات ، وقد وظفت في هذه الآية للدلالة على جعل الهلال وسيلة لكي يعلم الناس بها أوقات الحج والعمرة و الصوم، وغيرها من حاجيات الخلق، على عكس الشمس الباقية على حالها منذ القدم.

وظف العنصر الإشاري المبهم **(الوقــت)** للدلالة على جعل الله من الأهلة المهديــة للناس، والسبيل إلى معرفة أوقات عباداتهم المختلفة.

كما وظف أبو العلاء المعري عنصرا إشاريا آخرا متمثلا في الزمان في مواضــع متعددة من الرسالة، وبصيغ متنوعة، ففي نفس المشهد نجد أن أبا أيوب يعلق علــى أحــد الأخبار التي سمعها من الشاحج مستخدما العنصر الإشاري المبهم **(سالف الزمن)** الــدال على فترة زمنية مضت وانقضت في يثرب، والدال أيضا على عدم تعارف النــاس علــى وجود نهر فيها إلى اليوم، حسب رواية "أبي كرب" وغيره من الــرواة الثقــات إذ يقــول البعير في هذا الموقف : «**ما روى أنه كان بيثرب نهر قط وهذه أخبار أبي كرب مع أهل المدينة في سالف الزمن، ليس فيها ذكر نهر إلى اليــوم**»[1]. تتمثــل وظيفــة العنصــر الإشاري (سالف الزمن) في ربط الماضي بالحاضر (ماضي وحاضــر مدينــة يثــرب) ومحاولة استرجاع صورتها القديمة ومقابلتها بالصورة الحالية من أجــل التعــرف علــى وجود نهر فيها أولا، والتوصل إلى عدم وجوده في النهاية.

وظف أبو العلاء المعري في المشهد الثالث من مشاهد الرسالة شخصــية جديــدة تمثلت في ورود الثعلب ثعالة ومعه إجابة السؤال المتبادرفي ذهن الشاحج ويلقــي التحيــة عليه فيرد بقوله: بورك صباح الثعالب، ويعجب به وبالخبر الذي عرضه له ويدعو لــه بالخير وفي حوارهما يسمعان ضجة بين العامة سببها الخوف من الغزو الرومي، فيترجى الشاحج، الثعلب من أجل معرفة جل الأخبار وأن يعلمه بالمستجدات في وقتها ليكون بذلك كالعين التي يفتقدها، يقبل الثعلب عرض الشاحج ولا يماطل في الذهاب إذ يعود مســرعا لكي يخبره بأن ما زعمته العامة صحيح وأن زعيم الروم قد وصل إلى أرض المســلمين، فيسكت الشاحج برهة، ويجيبه أن عزيز الدولة أحق بردها ويتمنى أن يكون هــذا الخبــر كذبا، ومما لا شك فيه أن الحروب كانت موجودة منــذالأزل، وأن نهايــة آيــة صــراع

[1]– المصدر السابق ص 275.

تستوجب نجاح فئة على الأخرى، وأن عالم الإنسان يشبه عالم الحيوان فالبقاء في عالم الحيوان للأقوى، وكذلك في عالم الملوك تكون السلطة للأقوى، والمتضرر الوحيد من ذلك النزاع سواء في عالم الحيوان أو الإنسان هو الضعيف، ففي عالمنا نحن ينتج عن أي صراع تشرد وفقر وقتل الرعية، وبهذا يصح قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «يأتي على الناس زمان يكون أروح الناس فيه الخفيف الحاذ، قيل: يا رسول الله، وما الخفيف الحاذ؟ قال: «**الذي لا أهل له ولا مال**»[1].

استخدم العنصر الإشاري المبهم (زمان) للدلالة على المستقبل المنتظر عكس دلالته السابقة على عصور مضت وانقضت أو ربط زمن ماض بالحاضر، كما دل هذا اللفظ على أن الناجي الوحيد من الوقائع والحروب التي يمكن أن تحدث هو الوحيد الذي لا أهل له ولا مال عنده.

يتحدث أبو العلاء المعري في المشهد الرابع عن عودة الثعلب بأخبار البلاد وأخبار الجاليين والمقارنة بين البادية والمدينة ويمتاز العيش في البادية بالصعوبة على عكس نعومة وسهولة العيش في المدينة.

من العناصر الإشارية الدالة على الزمن المبهم الموظفة في ثنايا هذا المشهد العنصر الإشاري (قبل) في القول الآتي: «**ذكر أن ما بين "الاسكندرية" وبلادها وما بين "القسطنطينية" كان في قديم الزمان أرضا تنبت الجُمَّيْزَ، وكانت مسكونة وخِمَةً، وكان أهلها من اليونانية، وأن الاسكندر خرق إليها البحر فغلبت أمواهُه على تلك الأرض. وكان بها فيما يزعمون "قُقْنُسُ" الطائر الذي تدعي الفلاسفة فيه تلك الدعوى المستطرفة، وأنا أذكر من دعواهم ما سنح.**

[1]- المصدر السابق، ص 416.

يزعمون أن هذا الطائر حسن الصوت وأنه كان في بلاد اليونانية، فإذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة ايام، حتى لا يمكن أحدا أن يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن ذلك الصوت ما يميت السامع، وأنه يدركه قبل موته بأيام، طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح»[1]، يحيل هذا العنصر الإشاري إلى الفترة التي يحسن فيها صوت طائر القفنس وأن في سماعه من الحسن ما يميت السامع، كما يحيل هذا اللفظ على الفرح والسرور الذي يعتريه قبل موته بفترة محددة بسبعة أيام، فلا يهدأ من الصياح طوالها ولا يمكن لأحد أن يسمع صوته فقد ذكر أن أحد عاملي الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوته في تلك الفترة، فخشي أن يموت بفعلته هذه، ورأى أن الحل هو سد أذنيه وفتحهما بالتدريج أول مرة، ويروى أن هذا الطائر هلك ولم يبق منه ولا من ولده شيئا.

استخدم المعري هذا العنصر الإشاري المبهم لعدم معرفته فترة عيش ذلك الطائر بالتحديد ومعرفته بفترة حسن صوته فقط.

أدى توظيف الكاتب للإشاريات الزمانية في مضمون رسالته إلى مساعدة المتلقي على فهم أحداثها ومعرفة القصد المرجو من وراء توظيفها وكذلك معرفة وقت التلفظ وما يختلج أبطالها من مشاعر ومواقف وكان توظيف العناصر الإشارية المبهمة في مواضع قليلة على عكس توظيف الإشاريات المختصة بكثرة وقد توزعت على جميع المشاهد، لأن ضرورة حتمية اقتضت عليه توظيف هذا النوع من الإشاريات الدالة على الزمان وهي عرض حال أبناء أخته وحال شعب حلب وخوفهم من الغزو الرومي المرتقب، كما أدى توظيف هذا النوع من الإشاريات الزمانية إلى خلق جو من المتعة وإعمال العقل من أجل فهم المضمون، وتحمل الصيغ الدالة على الزمن وظيفة مزدوجة في مواضع أخرى من الرسالة إذ تشير في بعض المواقع إلى تحديد الفترة الزمنية وفي مواضع أخرى إلى التعبير عن حاجيات المتكلم أو المتلقي.

---

[1]- المصدر السابق، ص 554.

3- الإشاريات المكانية:

يتأسس البعد التداولي للمكان في رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري بحركية انتقال الرسالة، ذلك أن الإشاريات المكانية عبارة عن علامات تحدد الموقع الذي يتم فيه التخاطب، إذ لا وجود لتكلم أو حوار دون حيز مكاني وزماني، وما قيل عن الإشاريات الزمانية ينطبق على المكانية مع اختلاف طفيف في الغرض الذي يؤديه كل منهما، والمتمعن في ثنايا هذه الرسالة يجد أنها تحتوي على عدد كبير من الإشاريات المكانية، وقد وظفت بدلالتين ثانوية ورئيسية، تمثلت الثانوية في المسجد، يثرب، الأسواق، جامع المدينة، البادية وتتوالى هذه الأمثلة إلا أنها لا تخدم مجال دراستنا لأنها قد وظفت على سبيل الاستشهاد لا غير، ولم تحمل أي بعد تداولي، أما الإشاريات المكانية الرئيسية فقد تمثلت في ثلاث أماكن مهمة توزعت فيها أحداث الرسالة وهي: مدينة حماة، أرض أبناء أخته، مدينة حلب، وقد وظفها المعري بالتحديد دون غيرها من المدن لأنها تبين مقاصده وتعرض غايته المرجوة من وراء كتابة الرسالة، وكان المعري طوال هذا العرض متواريا لم يظهر إلا في التحية التي وجهها إلى عزيز الدولة في أول الرسالة، ثم اختفى وقام بتحريك الشخصيات المتمثلة في الحيوانات حوار، وقد وظفت كل من الصيغ الإشارية المكانية: حماة والأرض في قول أبي العلاء المعري: «**لي أطال الله بقاء السيد عزيز الدول وتاج الملة أمير الأمراء، أولاد أخ قد [1]على أنفسهم من خدمتي ما ليس بلازم، وأصغرهم سنا طفل صغير قد وكل بي في الصَّبَارَةِ[2]/.../ ولهم أَوَالِبُ[3]في مدينة**

1- أوذَمُوا: أوجبوا

2- الصَّبَارَةُ: شدة البرد

3- أَوَالِبُ: الوالة: فراخ الزرع.

حَمَاةَ*ولتلك الحُوبَاتِ[1] أَشقَاصٌ[2] في أملاك يأمل هؤلاء الحِسكِلُ[3] ان يصيبهم دفع من تلك السهمة، ورفع رافع إلى الحضرة العالية، أن حقا يجب للخزانة المعمورة على أرض أولئكالدُرِدِ [4] النَهَابِلِ[5] وسألوني، والمسألة حرمة، أن أسأل السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء" فيذلك»[6]، أدى توظيف المعري لهذين العنصرين الإشاريين إلى عرضه للقضية الأساسية التي من أجلها كتب رسالته، وهي أن أولاد أخته قد تفانوا في خدمته ورعوه في شدة البرد خاصة الصغير منهم، ولهم زرع في مدينة حماة، إلا أن مجموعة من المتظلمين قد رفعوا بيانا إلى عزيز الدولة، في أن لهم دين على تلك الأرض ويجب عليهم شديدة، لكن حالهم لا تسمح بذلك، لأنها قاحلة لا تنبت من الزرع، إلا القليل كما عرضنا سابقا ولا تكفيهم لقوت يومهم، ونظرا لهذا الظلم والشدة التي يعانونها سألوا أبا العلاء أباستطاعته أن يوصل شكايتهم لعزيز الدولة المعروف بالعدل والحكمة، وقد صرح أبو العلاء المعري بالمكان ولم يضمره ليبين القصد المرجو بدقة ليعبر عن حالة البؤس والحرمان التي يعيشها أبناء أخته، وبهذا التوظيف تحمل هذه الصيغ بعدها التداولي بجدارة واستحقاق، كما أن الخطاب لا يكتمل إلا من خلال تحديد المتكلم للموقع وإدراك المتلقي للمرجع المكاني الذي دل عليه، ثم يعرض لنا أبو العلاء المعري الحدث الثاني من الرسالة موظفا العنصر الإشاري المختص "حلب" على لسان الشاحج في قوله: «**والقاضي بحلب عادل منصف، على أنه يجيز أن يطبخ المظلوم بقدير أو مرجل، ويبيح أن يضرب خد المظلومة بالفؤوس، وفي دينه أمر الظالم بمعونة الظالمة**»[7]، وفي هذا القول يعدد

---

* حَمَاةَ: المدينة المعروفة بالشام على نهر العاصي.

1- الحُوبَاتِ: رقة فؤاد الأم.

2- أَشقَاصٌ: حظوظ.

3- الحِسكِلُ: الصغار

4- الدُرِدِ: جميع أدرد: من سقطت أسنانه

5- النَهَابِلِ: الضعيف العاجز.

6- المصدر السابق: ص 84-85.

7- المصدرالسابق: ص: 231.

لنا المعري على لسان الشاحج صفات عزيز الدولة العادل، المنصف للمظلوم والمدافع عن الحق، بعدما أتم الشاحج عرض أحداث رسالته مستخدما الأمثال والتورية يستحمقه أبو أيوب ولا يتمكن من فهم معناها ويستبعد أن يفهم عزيز الدولة منطق البهائم، ويتكرر توظيف العنصر الإشاري الدال على المكان في إجابة الشاحج للبعير ويذكر له ما سمعه من العامة من غلو في مدح عزيز الدولة، إذ يشبهونه بصفات لا يمكن أن تجتمع عند الآدميين في قوله: «**إن كان بلغك ذلك من أهل "حلب" حرسها الله، فإن حب "السيد عزيز الدولة أمثير الأمراء أعز الله نصره"، قد غمر قلوبهم وغطى أعينهم، ومن الكلام القديم: حبك الشيء يعمي ويصم لاسيما قوم عدول يعرفون بـ "بني سنان" يغلون في وصف هذا السلطان –أطال الله بقاءه– فيزعمون أن كفه أسمح من اللافظة وأن قلبه أشجع من قلب أسامة وأنه بالرعية أبر من الوالدة، وأن رأيه أهدى للظلال من جدي الفرقد بل من الشمس الطالعة، ويدعون له ضروبا من فضائل متباينات لا يجتمع مثلها في الآدميين، ولعلك بلغك عن هؤلاء القوم أنهم يدعون للسيد "عزيز الدولة أمير الأمراء" أنه أوتي ما أوتيه "سليمان" –صلى الله عليه وسلم– من معرفة كلام البهائم والطير وصنوف الحيوان**»[1]. نستنتج من خلال هذه العبارات أن البعد التداولي للعنصر الإشاري المكاني "حلب" يدل على الصفات التي يمتاز بها ملكها، وحب شعبه له، إذ يعتبرونه الأم العطوف التي تحن على أبنائها ويشبهونه بالأسد في شجاعته، كما يشبهون حكمته بسليمان عليه السلام، وأنه الهادي لهم في الظلام، كما أن الدافع من وراء توظيف هذا المكان بعينه راجع إلى محاولة أبي العلاء التقرب من عزيز الدولة، فقد مدحه من أجل أن تسهل عملية قبول مظلمته.

في موضع آخر نجد أن أبا العلاء قد وظف العنصر الإشاري المكاني "حلب" لا للدلالة على عرض مزايا عزيز الدولة وإنما للتعبير عن البديل الذي سيحل محل البعير

[1]– المصدرنفسه، ص 376–377.

(أبي أيوب) الذي لم يستطع فهم محتوى رسالة الشاحج فييأس منه ويحل ألغاز رسالته بنفسه.

ويتكرر في المشهد الثالث من الرسالة توظيف العنصر الإشاري الدال على المكان في الحوار الذي جرى بين الشاحج والثعلب ثعالة الذي يعد الأمل الوحيد بالنسبة للشاحج الذي سيوصل رسالته إلى عزيز الدولة، ويخبره بالمستجدات الواقعة في حلب، فبينما يتحدثان يسمعان ضجة، فيأمر الشاحج ثعالة بأن يأتيه بالخبر، فيتقبل عرضه ويسرع، يقول المعري: « **فيمضي ثعالة مبادرا، ثم لا يلبث أن يعود فيقول: العامة يخبرون أن زعيم الروم نقد إلى أرض المسلمين**»[1] ، ثم يشير أبو العلاء المعري إلى الفروق بين زعيم الروم وعزيز الدولة، ويبين أن الرسالة التي وجهها عزيز الدولة إلى زعيم الروم لم يأت منها جواب وإرسال عزيز الدولة إليه هدية تكمن الغاية من وراء إرسالها في طلب السلم والتراجع عن الحرب رأفة بالرعية، ثم يصور لنا أبو العلاء المعري خوف سكان حلب وابتعادهم عن أراضيهم عند سماعهم لخبر الغزو الرومي.

نستنتج أن للإشاريات المكانية أهمية قصوى في ثنايا الرسالة فلولاها لما استطاع المعري كتابة رسالته إلى عزيز الدولة والتعبير عما يخالج صدره من مشاعر لا يستطيع كتمانها وأن صبره وأهل قبيلته على الظلم قد بلغ أشده، فاستخدم العناصر الثلاثة الدالة على المكان (حماة، حلب، الأرض) لتشير إلى مكان بعينه وأمله في أن تتغير أوضاع هذه الأماكن.

[1]- المصدرالسابق، ص 415.

ثانيا:متضمنات القول:

1- الأقوال المضمرة:

تحفل رسالة المعري بالعديد من المقولات التي تحمل بين ثناياها إضمارا لا يمكن فهمه بعيدا عن السياق الخارجي للنص فالقراءة النسقية لهذا المنجز تترك المتلقي في حيرة يتخبط خبطا عشواء، فإذا ما اطلع على سياقاتها الخارجية انزاحت من أمامه الصعوبات وزالت الغشاوة عن تفكيره وتدبره، ومن بين المواضيع التي نجد فيها اضمارا قول الصاهل: «**ومن أين علمت بالكرم، ومن دون عينيك حجل قد شُدَّ، لو كان دون العينِ النابعةِ[1] لما فارتْ، أو العين الطالعة[2] لما أنارت**»[3]. فظاهر القول أن الصاهل اعترض على قول الشاحج «**من أين طرأ علينا الكريم**»[4]. متعجبا كيف لأعمى أن يعرف أن القادم يتصف بالكرم دون غيره، ولكن العارف بأحوال المعري من خلال السياق التاريخي والشواهد النصية التي أشار فيها هو نفسه إلى أنه سجين محبسين محبس العمى ومحبس البيت ويدرك مباشرة أن المضمر هنا هو حالة المعري المصاب بالعمى ويتعجب من معرفته للقادم إليه واستطاعته التمييز لطبائع الناس على الرغم من عدم رؤيته، فهو كفيف لا يميز موقع قدمه، وكيف له أن يميز سلوكا معنويا لا تلمسه اليد وإنما تكشف عنه المخالطة والمساكنة وضيم الدهر، فتكون الإجابة: «**عرفتُ كرمك في وطئك وصوتك، لأن الرائع قُمُوصُ الرِّجلِ، بحِجلٍ كانت أو بغير حجل. ولأن جُشَّةً في الصهيل تكون بِعِتْق الفرس أَبْيَنَ دليلٍ**»[5]. وهذه الإجابة المقنعة حول تساؤل الصاهل وتعجبه في معرفة الشاحج له رغم عناه وبهذا نستنتج أن هذا الوصف إنما هو إحالة على المعري نفسه فقد

---

1 – العينِ النابعةِ: عين الماء.

2 – الطالعة: عين الشمس

3 – المصدر السابق، ص 93.

4 – المصدر نفسه، ص 93.

5 – المصدرنفسه، ص 93.

ثبتعنه تبحره في العلوم وسعة ثقافتة وامتداد شواطئه، فالمتمعن فيها يجد احتواءهـا علـى العديد من الدرر.

وعليه فالمعري لا يشترط في معرفة أحوال الناس أن يكون الحكم مبصرا وإنمـا يكفيـه إحساسه الرهيب وامتلاكه لحاسة السمع حتى يتمكن من إصدار الحكم ومعرفة القادم إليه، وبهاتين الصفتين استطاع الشاحج أن يعلم بأن أحدا قادما إليه واستخدامه للفظـة قمـوص تدل على وصف وقع الفرس في قصيدة أصمعية. وإجابته هذه أسكتت الصـاهل ودفعتـه للتساؤل على المعرفة التي يمتلكها في قوله: «**إنك لعالمٌ بِالعِراب، ضن أين لك ذلك والأيام لك شاجِنَةٌ ونُوبُهَا عندك راجِنَةٌ؟**»[1]، ظاهر هذا القول أن الصاهل يتعجب لأمر الشـاحج حول معرفته الواسعة على الرغم من قسوة الأيام فهي دائما ضده، أما المضمر في هـذا القول يتمثل في أن الصاهل يعمد إلى الحط من قدر الشاحج، ولكنه لم يعرج بـذلك إلا أن القارئ الذكي والمتبع لسرد الرسالة يفهم ذلك بلا ريب.

بعد التقائهما وطلب الشاحج من الصاهل إيصال مظلمته إلى عزيز الدولة يجـري حـوار بينهما ويعرض كل منهما صفات عزيز الدولة فيذكرها الصاهل بصريح العبارة بوصـفه إياه معينا ومساعدا للناس، عالم بالأدب وعادل إذ شبه عدله بـالمطر، فيقـول الشـاحج: «**صَدَقَ زاعمٌ فيما زَعَمَ، أنه لَكَمَا تَصِفُ وأَنْعمَ وهو إِدرَاكِهِ جِدّ العُظَمَـاءِ، ضاربٌبالسـهم الفائز من سهام العلماء، وليس كذلك جماعة الملوك، لأنهم يُرْهَبُونَ فَـلا يؤَدَّبـون، وإذا كان أحدهم صغيرا كان في الباطل واللعب مُغِيرًا؛ حتى إذا كَبِرَأَنِفَ فلم يَسـتأنِف**»[2]. إن الشاحج هنا يطيل المدح لهذا الأمير ويميزه ويصادق على قول الصاهل مؤيدا مـا قالـه وهذا هو ظاهر القول ولكن حقيقته أن المعري يقلل من شأن الملوك والأمراء وبالتالي فهو يطعن في قيمة ما يتميز به الأمير لكنه لم يصرح بالقول وإنما اضمره وأبدا غيرة إلا أننا

---

[1] – المصدرالسابق، ص 93.

[2] – المصدرنفسه، ص 95.

نفهم ذلك خاصة أن المعري نفسه كان يترفع عن مجالسهم لأسباب منها ضحالة ما قدم في مجال تلك الفترة التي كانت الخلافة العباسية تمر بها ولعل الاستثناء من ذلك دولة بنو حمدان التي كان سيف الدولة سيدها الذي ترك نارها المشتعلة دوما وليسأدل على تجريح المعري للأمراء في قولهم بأنهم في صغرهم يحبون اللهو واللعب فإذا ما كبروا كرهوا استئناف في طلب العلم فعليه فإن المراد أن هذا الأمير مهما حاول تعطيل ما فاته فإنه غير جاد في ذلك وإنما ما يفعل هي عادة الملوك والأمراء حين يتصدرون مجلس الحكم.

ورد نص على لسان البعير نستكشف من خلاله النزعة النقدية للمعري واهتمامه بالثقافة قال فيه «**التصحيف قد جاء عن كثير من العلماء، فمن ذلك ما يروى عن المُفَضَّلِ في قوله:**

وذاتُ هِدْمٍ عَارٍ نَواشِرِهَا تُسكِتُ بالماء تَوْلَبًا جَدِعًا

أي سيء الغذاء أنشده "المفضل جَذَعًا»[1].ومن غير المعقول أن تعتقد بأن البعير يهتم بالثقافة أو بغيرها وإنما المقصود هنا صاحب الرسالة ومؤلفها وكتبه تفيض بما كان يفيض في جرابه.

وفي حديث للصاهل ردا على الشاحج يستتر في قوله: «**ومن أين علمت بالكرم، ومن دون عينك حجاب قد شُدَّ، لو كان دون العين النابعة لما فارت، أو العين الطالعة لما أنارت**»[2]. فالسامع العالم بحال المعري وماهو عليه في واقع الحال يدرك بلا أدنى شك بأنه هو نفسه المعني بهذا التعريف غير أنه نسب العاهة إلى بغل اسمه الشاحج ليوهم الغير بأن القصة بأكملها تتعلق بعالم بالحيوان لا بعالم الإنسان.

---

[1] – المصدرالسابق، ص 301–302.

[2] – المصدرنفسه، ص 93.

إن التمعن في هذه الرسالة يكشف لنا عن مواضع أخرى التجأ فيها المعري لإظمار القول الذي أراده بريئا حتى لا يلحق به الأذى فقد شبه الهدية التي أهداها عزيز الدولة لملك الروم "بسيل" بعمل "ما" فقال في ذلك" « **وقد حمل "السيد عزيز الدولة" -خَلّدَ الله ملكه- ما فيه من الكرم والرأفة بالرّعية والرغبة في حَقْنِ الدماء، على أن بعث هَدِيةً سَنِيَّةً أشبهت شرف قدره وعزوف نفسه، والهدية مثلها "ما" التي تكف العامل عن العمل، ألا ترى أن إن خواتها تكفهن "ما" عن النَّصب**»[1]. فظاهر القول تتقبله النفس ويرتاح له القلب، فلا صبر أن يتهادى الملوك والرؤساء والأمراء، ولكن المطلع على التاريخ و الأسباب التي دفعت بعزيز الدولة للإقدام على هذا الفعل، يعلم يقينا أنه تصرف عن ضعف لا عن قوة، فحين تعرض الناس للظلم من طرف ملك الروم، ولم يكن بمقدور عزيز الدولة الدفاع عن مملكته، لجأ إلى أخف الأضرار وهي الهدية والتي لا تدل على القوة، وإنما هوان النفس وضعفها، فموقفه لا يختلف عن العمل المعنوي الذي تقوم به الحروف النحوية التي تمنع الحرف من أداء وظيفته وبالتالي فالمعري لا يرفع من قدر عزيز الدولة وإنما يحط من قدره دون التصريح بذلك، يقينا منه بأن الأمراء والملوك لا يأمن اللبيب جوانبهم فهم في الغالب على جبر لديهم المصارحة والمكاشفة والنقد الموضوعي.

ولكن المعري حتى وهو يتكئ على الإضمار في رسالته الموجهة إلى عزيز الدولة، يعمد للإشارة في بعض أجزاء الرسالة مما يوحي بأنه على يقين من معرفة عزيز الدولة أن توظيف الشاحج في هذه الرسالة إنما هو عرض لحال أبي العلاء نفسه، وهذا ما نراه من خلال قوله: «**فأما أن يقول حيوان ليس بالناطق كلاما يفهمه عنه الإنس فَمُتَعَذِّرٌ ذلك، وكل ما تسمعه من دعوى العرب، فإنما هو على معنى المجاز وتصور الشيء**

[1]- المصدرالسابق، ص 420.

بالصورة التي ليست له»[1]. إذا فالمعنى بالتأكيد ليس الحيوان الذي أنطقه الشاعر نثرا ليقول من خلاله ما يخشى التصريح به نظرا للأحاديث والأخبار التي كانت تدور في تلك الفترة، وهو على يقين وقناعة بأن الإضمار على لسان الحيوان يكون طلبا للسلامة وعليه عبر عن ذلك بقوله: «**جائزا أن تضمر هذه البهيمة أو تقول باللسان ما لا يفهمه كل إنسان**»[2]، والحق أن المطلع على تراثنا العربي يجد الكثير من النماذج التي عالجت موضوعات عدة متخذة من الحيوان أداة لتوصيل خطابها، مثل "كليلة ودمنة لابن المقفع" و "حي بن يقظان لابن طفيل" وغيرها من النماذج التي يفوح بها تراثنا العربي، والمعري في المجال السياسي عرف أنه يجاهر بالحق ولا يخشى في الحق لومة لائم، إلا أنه مع عزيز الدولة وفي هذه الرسالة بالذات انتهج لنفسه نهجا آخر ليقينه بأن الذي يغدر صاحبه الذي ولاه الحكم وأمنه على رقاب الرعية بمقدوره البطش، خاصة إذا كان الناقد رجلا كفيف البصر وليس بإمكانه الفرار وتحمل ما يتعبه.

وليس أدل على ذلك قوله مواريا ومضمرا حقيقة ما في نفسه: «**تحدثت العامة أن سبب الفساد بين "السيد عزيز الدولة أعز الله نصره"، وبين الطاغية أنه سامه أن يجتمع معه والمثل السائر:**

وهل يجتمع السيفان ويحك في غمد؟

وكيف يطمع مثله في هذه المنزلة؟ وإنما قيل أنه جعل السيد "عزيز الدولة" أعز الله نصره، العشر في مملكته ولا يغيض من حاله»[3]. والجاهل لأحداث التاريخ يفتقد صدق العامة لأن هؤلاء حكمهم على الظاهر وما تراه العين، وقد رأت الرعية ملك الروم وهو في طريقه إلى حلب، ثم توقفه وانحداره إلى جهة أخرى، فظن هؤلاء أن عزيز

---

[1]- المصدرنفسه، ص 164.

[2]- المصدرالسابق، ص 91.

[3]- المصدر نفسه، ص 685.

الدولة رفض أن يجتمع به، وظنوا أن السبب في ذلك أن العرض الذي قدمه ملك الـــروم والمتمثل في إعطاء العزيز العسر مما يحوزه الروم، والمعري حين نقل قول العامـــة لـــم يصرح بحقيقة الأمر، فالمعلوم تاريخيا أن العزيز حين انقلب على الحاكم الفاطمي جهز له هذا الأخير قوة يريد بها نزع الملك من تحت قدميه فما كان من عزيز الدولة إلا الاستنجاد بملك الروم وقبل وصوله مات الحاكم الفاطمي فأرقد العزيز على عقبيه وخالف عهده مع الروم، وبالتالي فصنيعه لم يكن عزة نفس، ولا خوف على الرعية ولا لأن الملك أعطـــاه أقل مما يريد، فالمعري هنا أشار إلى ضعف عزيز الدولة لكن لم يصرح بذلك وعليه فقد أضمر عكس ماهو ظاهر للمتلقي وكيف لا يغفل ذلك وهو موقن بـــأن رســـالته طريقهـــا لعزيز الدولة.

وفي موضع آخر من الرسالة يقول المعري: «**وإنما ينبغي أن يقع الاحتراس مـــن صديق هو معه مثل الذئب مع همام بن غالب**»[1]. هذا القول ليس برئيا كما يبـــدو وهـــو يحمل قولا خفيا أضمره المعري لغاية، في نفسه فالظاهر هو التحذير من الصديق الذي قد ينقلب عدوا في أية لحظة ضاربا بذلك مثلا بالذهب الذي كان مصـــاحبا لأحـــد الشـــعراء والذي قاسمه الزاد ومع ذلك ظلت يده على مقبض سيفه متوجسا منه خائفا مـــدركا أن لا أمان لذئب، وبالعودة للقول يحق لنا التساؤل هل المقصود بالتحذير الرعبة التي يتوجـــب حذرها من العزيز أم العكس؟ وهل المعري هو المعنى بتحذير نفسه؟ ومهما كانت الإجابة فبالتأكيد أن المعري داخل في إطار التحذير الذي يوجب الإحتـــراس، وهـــاهو المعـــري يتعرض لمجلس من مجالس عزيز الدولة ولكن بطريقة ذكية «**قد بلغني أن للسيد عزيـــز الدولة وتاج الملك أمير الأمراء مجلسا يجتمع فيه الفقهاء وأهل الكلام والأدب والشعراء ولو تحرى في التطوع متحوب، فقادني برسني حتى أقف مـــن ذلـــك المجلـــس بمـــرأة ومسمع لألقيت مسألة ثم فرعتها، فخاض فيها الفقهاء والمتكلمون والشـــعراء ســـحابة**

[1]- المصدرالسابق، ص 703.

ليلتهم تلك»[1]. في هذا القول نسمع صوت المتنبي فهو القائل: أنام ملء جفوني عن شواردها، والمعري حين عرض المسألة فهو لا يريد بذلك مشاركة المجلس نقاشاته وإنما يعرض بتفاهة المعروض ويقلل من قيمة الحضور، وإلا كيف يعرض مسألة ويفرعها فيبيت العلماء والفقهاء يخوضون فيها، هنا نفهم أن المعري أراد بالقول بأنه يفوق هؤلاء علما، وأن المسائل التي يخوضون فيها بسيطة وسطحية بالنسبة إليه.

2- الافتراض المسبق: الافتراض المسبق هو القول المستتر الذي تنتجه العملية التحاورية، ومعناه أن يأتي الجواب غير مباشر، ولكنه يحتمل أكثر من تأويل والمتتبع لأحداث رسالة المعري "الصاهل والشاحج" لا يكاد يعبر إلا عن القليل، ومن النماذج التي تجري في هذا المصب وأول ما يقع عليه النظر حين القراءة قول الشاحج ردا على الصاهل: «**صَدَقَ زاعمٌ فيما زَعَمَ، إنه لَكَمَا تَصِفُ وأَنْعَمَ، وهو على إدراكه جِدَّ العظماءِ، ضاربٌ بالسهم الفائز من سهام العلماء**»[2]. فمن هذا القول يفهم السامع أن الشاحج أيد قول الصاهل فوصفه بالصدق ليقينه بأصالة منبته الطيب خاصة وأنه وصف مسبقا بالكريم.

والمعنى الثاني أن الشاحج كان على علم قبل وصول الصاهل وعليه فإنه حينما أكد له الصاهل حقيقة الزعم أو ما كان يعتقده زعما صدق على القول الذي وصل سمعه من قبل وعليه وصف الناقل الأول والذي يحسبه زاعما أو كاذبا، بالصدق بعد أن أيقن بميزات عزيز الدولة، فالرواية التي يتعدد رواتها لا تحتمل الكذب خاصة حين تأتي من أوجه مختلفة.

---

[1]- المصدر السابق ، ص 189.

[2]-المصدر نفسه، ص 95.

ثانيا:الأفعال الكلامية:

إن المتمعن في رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري الموجهة إلى عزيز الدولة من أجل رفع الظلم عن أبناء أخته، المؤلفة على لسان الحيوان، للتعبير عن حالة عصره يلاحظ أن توظيفه الكاتب للأفعال الكلامية متنوع بين الملفوظات: التصريحية، التعبيرية، الإخبارية، الإنجازية والإيضاحية سنبينها في الجداول الآتية:

1- الملفوظات التصريحية:

الفعل الكلامي	زمنه	دلالته الظاهرة	دلالة قوته الإنجازية
«قد أضاء الصبح لذي عينين، فهل يضيء لمن لا عينين له؟» ص 82.	الماضي + المضارع	- رؤية المبصر لنور الصباح ولكن الأعمى لا يباح له ذلك	- المقصود أن الأعمى لا يلقى عليه باللائمة لأنه عاجز عن تحقيق الحاجة وبلوغ المراد بنفسه
«أذكر حاجتي قبل أن أُبْرِم فأُجْرِمَ، لأن من أتى بالإبرام وقع في عظيم الإجرام» ص 84	الماضي + المضارع	- التصريح بالغاية التي يريدها أبو العلاء المعري في هذه الرسالة هي عرض حاجة أبناء أخته من عزيز أخته وتوضيح أسبابها.	- يتوجب على الإنسان حين يطلب حاجته من صاحب الأمر والنهي أن يكون مقصرا في القول وأن لا يطيل لكي لا يقع في المحظور.
«أشرت عليهم بترك تنجزهم الصفح عن	الماضي + المضارع	- طلبه من أبناء أخته العدول عن	- إعلام عزيز الدولة بأنه لم يقدم

ذلك، وقلت: الصبر على القناعة أقبل من سوء الصناعة» ص 86		طلبهم المتمثل في الوساطة بينهم وبين عزيز الدولة	على المراسلة إلا بعد إلحاح وإصرار وأنه لم يفعل ذلك لحاجته الخاصة ولكن الوساطة تستدعي ذلك
«تود بهيمة أصعدته لو كانت في سواد ذي القرنين تحمل أوتاد خيام أو غيرها من أثقال اللئام، تسافر من المشرق إلى المغرب» ص 90.	الماضي + المضارع	– صعوبة هذه الأرض مما يجعل البهيمة تتمنى الرحيل من مكان إلى آخر هربا مما تعانيه.	– كيف لعزيز الدولة الطمع في جزية أرض تخاف البهائم خدمتها ولا تجد فيها راحة بال والأرض التي تشقى فيها الحيوانات كيف يسعد فيها الإنسان.
«عزمت أن أنظِمَ هذه الصفة في بيتين من الشعر أو ثلاثة، فإنه أسرع إلى حفظ المرسَلِ وأخصر تكلفا من اللفظ المهمل» ص 103.	الماضي + المضارع	اتخاذ القرار باختصار الطلب في أقل قدر ممكن من الكلام ولا يكون ذلك إلا من خلال الشعر.	– قدرة المعري على صياغة الملفوظ المنثور مهما كان حجمه في قول يكون موجزا وليس أدل على مقدرته على تلخيص رسالة طويلة في بيتين من الشعر.
«زعمت أنى خالُكَ؟	الماضي +	سخرية الصاهل من	– لا يكفي ادعاء

وأين الأفق من اللئيمولدته غافقٌ؟ وما بين الشَّربة والصَّربة من سهمة؟» ص 110.	المضارع	الشاحج حين نسب نفسه إلى خئولة ليس له الحق فيها.	النسب والافتخار به ما لم يطابق القول فالكريم لا ينسب إليه إلا كريم الأخلاق.

نستنتج من خلال هذا الجدول أن "أبا العلاء المعري" استعان بالملفوظات التصريحية لتبيان ما يريده في رسالته من عزيز الدولة، والمتمعن في الأمثلة التي أمامنا يتضح له أن تصريحاته في الغالب لم تكن ذات دلالة مباشرة وإنما يفهمها المتلقي حين يحاط علما بالظروف والعوامل التي جعلته يقدم على هذه الخطوة.

2- الملفوظات التعبيرية:

الفعل الكلامي	زمنه	دلالته الظاهرة	دلالة قوته الإنجازية
«لو كنت بالغا في الأدب أطورى، لكنت في تلك الحضرة كالقطرة تحت الصبير، والحصاة إلى جانبثبير فما بالي وأنا مثقل استعان بذقن وطفل بهش إلى يفن، وذليل عاذ بقرملة» ص 81	الماضي	- الظاهر من القول أن المعري يرى نفسه قطرة في مجلس عزيز الدولة.	- حقيقة القول أنه يحس بالعجز نظرا للعامة التي يعاني منها مما جعله يرى نفسه صغيرا حين يكون بين جماعة عزيز الدولة.

«لي – أطال الله بقاء السيد عزيز الدولة وتاج الملكة أمير الأمراء– أولاد أخ قد أوذموا على أنفهسم من خدمتي ما ليس بلازم /.../ لا يمكن قضاؤها بنفسي» ص 84.	الماضي + المضارع	– التعبير عن المعاناة التي يتحملها أبناء أخته في سبيل خدمته خاصة الصغيرة منهم.	ما أراده المعري هو الكشف عن حالته النفسية إذ يظهر من كلامه أنه محبط ويحس بالعجز لأنه لا يقدر على قضاء حاجته بنفسه
«أشرت عليهم بترك تنجزهم الصفح عن ذلك وقلت: الصبر على القناعة أقبل من سوء الصناعة والكريم يحب أن يُستحيا منه» ص 86.	الماضي + المضارع	– النصيحة بالعدول عن طلبهم المتمثل في شفاعتهم لهم لدى عزيز الدولة.	– الكشف عن الحرج الذي أحس به وهو يقدم على الخطوة لأن عزة نفسه تأبى عليه طلب المعونة.
«فجشموني كلاما في ذلك، فقبح الله معزى خيره خطة، وشجرا أطوله التربة» ص 87.	الماضي + المضارع	– شرح الأسباب التي دعته إلى الوساطة بين أبناء أخته وعزيز الدولة.	– الكشف عن حالته النفسية وهو ما يفهم من لفظة (جشموني) بمعنى أنهم حملوه أكثر من طاقته وأحرجوه حتى لم يجد مناصا.

نستخلص من خلال هذا الجدول أن "أبا العلاء المعري" قد وظف الملفوظات التعبيرية بكثرة لأنه أراد من الرسالة أن تعبر عن حالة عصره وعن ظلم وجبروت بعض الحكام، وإيصال الظلم والخوف الذي يعتري أنباء أخته إلى عزيز الدولة.

3- الملفوظات الإخبارية:

الفعل الكلامي	زمنه	دلالته الظاهرة	دلالة قوته الإنجازية
«أسلم على الحضرة العالية تسليم العاجز المقصر، كما ينظر الهادي المدلج إلى فرقد الليل» ص 81.	الماضي + المضارع	إلقاء التحية على عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء	الإخبار عن مدى عجز أبي العلاء المعري وقلة حيلته في إيصال شكايته لعزيز الدولة وكذلك شبه بعد المسافة التي تفصل بينهما بالنجم المضيء في السماء، ويقصد بذلك –عزيز الدولة– والمسافر الضال لطريقه–أبو العلاء المعري– في الليل المحتاج لها يدله
«علم الله جل اسمه أني أستنزر لـــ " السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء" خلد الله		إخبار عزيز الدولة بأنه مهما بذل في حقه من هدايا فإن ذلك يبدو هينا في عيني المعري يقصد	علو مكانة عزيز الدولة وامتلاكه القناطير من الذهب والفضة يجعلان أي هدية تافهة ولا قيمة

أيامه كل كثير فلو حملت إلى حضرته الذهب لظننته صُفرا» ص 83		نفسه.	لها وهي إشارة إلى الثروة التي تمتلئ بها خزائن الدولة.
«كانت عند "سيف الدولة" بنت عمه أخت "أبي فراس" وكان يَلقَى من أخلاقها شدة. فحدّث من يَخبُرُ أمره أنها لما حصت في داره أقامت سنة لم تكلمه بكلمة» ص 668-669.	الماضي + المضارع	الإخبار عن واقعة حدثت أيام الدولة الحمدانية	- أن الظلم يأتي من الأقارب أكثر من غيرهم خاصة الذين يقيمون معنا في نفس المكان.
«أنه إذا كان يوم أضحى أو فطر، وهم كل تَفِلٍ بِعِطْرٍ، واهتم المُقْتِرُ بإخضام العَيْلَةِ، وسُمِح للنصب من البهائم بالراحة، وغسلَ أَطمارهُ كل قَهِل، وضحك إلى أخيه العابسُ، ورجوت أني لاشتغال الزرَّاعِ بصَلاتهم في العيد وإصابتهم شيئا	الماضي + المضارع	- الشاحج يعبر عن فرحة الناس بالعيد وأمنيته في أن تتم الفرحة بنيله قسطا من الراحة	- أقسى أماني الخادم وأجلها وأكبرها قدرا هي أن يفرح حين يفرح غيره وليس له من الفرح إلا أن يرتاح من حمل الهموم والأثقال

مما صنعه الآدميون، أظفــرُ بقســم مــن الراحة وسهمٍ أنتفــع به من الدَعَــةِ» ص 98			

يتبين لنا بعد الاطلاع على المدونة أن "أبا العلاء المعري" وظف الأفعال الكلامية الإخبارية بشكل مكثف وهذا راجع إلى طبيعة الرسالة والتي من مهامها إعلام عزيز الدولة وإحاطته بالظروف التي دعت لمراسلته والحالة القاسية التي يعيشها أقاربه وعليه كان لزاما الاتكاء على الإخباريات لإعلام الغائب في حالة فئة من رعيته تعيش ضنك الحال وتقلب الدهر.

4- الملفوظات الإنجازية:

الفعل الكلامي	زمنه	دلالته الظاهرة	دلالة قوته الإنجازية
«لا تكن من الــذين إذا طلبــت مــنهم الحاجة سكنوا، وإذا سئلوا في الشــيء المعرض نكتوا» ص 105.	الأمر	- النهــي عــن الإعراض إذا طلبت الحاجة والإجابة لو بالكلام.	- لا بد من اتخــاذ المواقف ساعة الجد فالصــمت حيلــة الضعيف والواجــب الرد وقت الحاجــة الشديدة.
«اسق نغبــة مــن صفنك يقــيض لــك ربــك مــن يمــلأ مزادتك» ص 105.	الأمر	- طلب الإنفاق مما تملكه اليد يقينا بــأن الله يعوض ذلك.	- المال الذي نملكه هو مال الله ولــذا لا يتوجب الخوف مــن الإنفاق وأن الأمــر

			بيده وهو قادر على تعويض ما أنفقناه إن كانت نوايانا صادقة
«**وأعر الجازر مدية يطعمك من أطايب الجزور**» ص 105.	الأمر	– إذا أردت أن يحسن إليك غيرك فعليك أن تعينه على قضاء حاجته	– لا يكون الجزاء إلا من جنس العمل مصداقا لقوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ سورة الرحمان: الآية 60.
«**لا يغرنك ماتراه من الكفل والأقراب من الجلب والندوب، فإن المطر إلى جاد الأرض ضحكت بعد عبوس**» ص 108.	الأمر	– النهي عن الحكم على الآخرين حتى يكونوا في مواقف جيدة.	– لا يمكن التعامل مع الآخرين انطلاقا من مظاهرهم حتى نحسن إليهم لأن المعاملة الجيدة كفيلة بتغيير الإنسان من حالة إلى أخرى
«**إن كان لك صديق في الجالية فوصه ألا يكون في أوائل الرفقة ولا الأواخر ولكن يكون متوسطا**	الأمر	– إسداء النصيحة للأصدقاء حتى لا يقعوا في المحظور.	– تجنب الجلوس في مقدمة مجالس الحكم لأن ذلك قد يكون مدعاة لوقوع الأذى حين يفضي الأمر.

بين الأول والآخر فإنه إذا كان أولا لم آمن عليه أن تدركه نائبة» ص 441.			
«أنظر في ذلك فرب جانية لم تأت بكتابة» ص 114	الأمر	– النصح بالنظر في المسألة والتحقق من وقوعها	– لا يمكن الحكم في أمر شيء والبت في الأمر حتى نعرف حقيقة وقوعه.
«ولا تضيعن حق الرحم فإنه لا يجهل» ص 105.	نهي بصيغة الأمر	– النصح بالمحافظة على صلة القرابة.	لا يحق للإنسان أن يضيع صلة القربى لأنها معلومة لدى الجميع من ضيعها أثم.

لم تحفل رسالة المعري بالكثير من الأمريات لسبب جوهري يتمثل في كون المرسل أقل قيمة من المرسل إليه، وعليه فقد تحاشى حتى استعمال الأفعال الدالة على الأمر مباشرة، واستبدلها بأخرى طلبية يراد منها النصح وهي قليلة تحصيها العين حين تراها.

5ـ-أفعال الإيضاح:

الفعل الكلامي	زمنه	دلالته الظاهرة	دلالة قوته الإنجازية
«قد كان ينبغي لك ألا تسمع كلام أحد الخصمين قبل الآخر وأن تأخذ بقول	الماضي + المضارع	– الاعتراض على التصرف أو السلوك الصادر المتمثل في اتخاذ القرار بعد	– التحذير من اتخاذ القرار دون الاستماع للمتخاصمين معا.

العـــرب: وجـــه المحرش أقبح» ص 211.		الاســـتماع لأمـــر المتخاصمين	
«فضـــج الشـــاحج وقال: ماهذا يا أبـــا أيوب؟»لقـــد ســـفه حلمك وخف وزنـــك ونفرت نعامتك، فما الذي حملك على ما صنعت؟ أليس على ظهري يستقي ربك إذا مـــررت فـــي أســـفارك فتســـرب النهل والعلـــل» ص 207.	الماضـــــــــــي + المضارع	– الإنكار على أبي أيوب وتصرفه غير اللائق.	– خطية كـــل مـــن ينكر الجميل ويـــأتي بتصرف شائن دون أن يتبين الأمر.
«وقولك: إنه كـــان إذا رأى نبيـــذا فـــي الجر سأل عنه، فإن كان له أهل ألزمهم النفقـــة عليـــه وإلا جعل نفقته من بيت المال – فنبيذ الجـــر إن كان مما يجـــوز	الماضـــــــــــي + المضارع	– مخاطبـــة القائـــل والاعتراض علـــى مقالته إيمانا منه بأن القـــول لا يســـتقيم والمنطق.	– حدود الله قائمـــة كليا والحكـــم فيهـــا يكون واحـــد ومـــا حرمـــــه الله يـــــتم التعامل معه انطلاقا من التحـــريم، فـــلا يقبل منه شيئا.

أن يشرب فأي نفسه تلزم عليه وإن كان مسكرا "**أريــق**"»ص 258-259.			

نجد أن أبا العلاء المعري وظف الملفوظات الإيضاحية لأسـباب منهـا: الإنكـار والاعتراض وذلك راجع لتصرفات الصاهل وتماديه في القول الذي يستوجب الإيضاح من طرف الشاحج ولأن كلامه لا يتماشى وحقائق الواقع فقد لزم ذلك إنكارا واعتراضا.

رابعا: الاستلزام الحواري:

يعد الاستلزام الحواري محورا هاما في قضايا التداولية هدفه الانتقال من المعنـى الصريح إلى المعنى الضمني، وقد تناولت رسالتنا المعنونة بـــ: "الصـاهل والشـاحج"، نماذج متنوعة قد توزعت على المشهد الثاني سنبينها في الجدول الآتي:

المشهد	العبارة اللغوية	المعنى الصريح	القوة الإيجازية الحرفية	المعنى الضمني
المشهد الأول	«**فما بالي وأنا مثقل استعان بذقن وطفل بهش إلى نفس وذليل عاذ بقرملة وعبد هتف بأمة؟**» ص 81.	اعترافه بالعجز وعدم القدرة على التنقل.	ما الاستفهامية	- إحساسه بالنقص الذي تولد عن إصابته بالعمى مما جعله يشعر بهوانه كالطفل أو الجمل المتنقل بالأحمال.
المشهد الأول	«**فماذا يصنع من لا كِنانة له ولا عُدَةَ عِنْدهُ؟**» ص 82.	المعنى الصريح لهذه العبارة هو أوعية السهام الفارغة.	النافية للاستفهام (ماذا + الفعل المضارع يصنع)	- وظف هذا المثال للدلالة على قلة حيلة أبي العلاء المعري وازدراء حالته وضعفه فهو كأوعية السهام الفارغة التي لا تؤدي وظيفة كما يدل على قلة ماله.
المشهد الأول	«**ولو ترك القَطَا ليلا لنام**» ص82	- أول من قال هذا المثل "حذام بنت الريان" تحذر قومها من عدو لهم حين	«لو» حرف امتناع لامتناع لا عمل له لأنه	- وظف الشاحج هذا المثال على أساس التورية

		رأت القطا ليلا مثارا غير نائم فأنشدت: ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا *** فلو ترك القطا ليلا لناما	غير جازم	واللغز لأن عزيز الدولة عالم بالشعر والأمثلة والحكمة إذ يشبهون حكمه بحكم سليمان عليه السلام. - فاستخدم لو حرف امتناع لامتناع للدلالة على القوافل التي تسير ليلا تزعج، المزعجة للنائم فيعجز عن النوم ولو لا وجودها لاستطاع أن ينام وبما أن عزيز الدولة عالم بالشعر والأمثلة فلا بد أن يفهم ما أضمره المعري في استخدامه لهذا المثل فهو

				يحـــــــاول أن يحـــذره مـــن الغزو الرومـــي المرتقب حدوثه مستخدما القوافل وعـــدم النـــوم للدلالة على ذلك
المشهد الثاني	«**ورآك مـــن لا يحفل برؤيتك**» ص 405	المعنى الصريح لكلمة رآك هو رؤية العين	لا النافيـــة + فعل مضارع	وظفت كلمة رآك ضـــمنية في هذه العبارة لتدل علـــى ضرب الرئة. يقال: رآه أي أصاب رئته.
المشهد الثاني	«**عصاك الشاب المُقتبَل**» ص 406.	عصاك: العصيان، عصيان الشاب القادم	فعل ماضي	المعنـــى الضـــمني لكلمـــة عصاك في هذه العبارة يدل على الضرب بالعصا وقـــد خص الشاحج الصغير بهذا الفعل لأنه أقوى من الشيخ الهـــرم الـــذي لا يســـتطيع الضرب بقوة
المشهد الثاني	«**سَحَرَكَ ساحر لا يأثم فيك**» 408.	لا تحمل هذه العبارة دلالة السحر المنهي عنه والمصرح به في هذه	لا النافيـــة + فعل مضارع	الساحر المقصود هنا هـــو الذي يصيب الرئة

		العبارة		
المشهد الثاني	«**ولا حُمِل فوق ظهرك الملح**» .409	ملح الطعام	لا النافية + فعل ماضي	استخدمت لفظة الشحم لتدل على الملح في هذا القول، فقد جرت عادة العرب لاستخدامها الشحم في وصف الملح لتدل على الشحم في وصفها لسمنة الزنج، كما يدل أيضا الملح على الغدر وقلة الوفاء
المشهد الثاني	«**أخطأت أرضك مصيبة سوداءُ**» ص 409.	المصيبة: الشدة والصعاب	فعل ماضي	المصيبة: السحابة، يقال أصابنا مطر وأصابتنا سحابة
المشهد الثاني	«**ولا سمعت صوت المرتجز**» ص .409	المرتجز: هو الشاعر الذي ينشد الرجز أو يصنعه، الرجز: أسهل البحور الشعرية يمتاز بسهو لة النظم فيه لأن تفعيلة واحدة تتكرر ستة مرات ومفتاحه: في بحر الأرجاز يسهل: مستفعل مستفعل مستفعل	لا النافية + فعل مضارع	تحمل كلمة المرتجز معنى احتكاك السحاب بالرعد مما ينتج عنه صوت يشبه صوت البحر الشعري (الرجز) فالرعد عندما يأتي يصاحبه صوت متتابع وقوي عكس لسحاب الذي يكون أبطأ منه واجتماع صوتهما يماثل بحر الرجز وتفعيلات بحث الرجز المتتابعة والبطيئة.

		مستفعل مستفعل مستفعل		
المشهد الثالث	«**وما الغرض من قولي: ونأى شيخ عن بلادك**» ص 400	– المعنى الصريح الذي يفهم من لفظة الشيخ هو الكهل الذي له تجربة وتدبير وحزم في مختلف جوانب الحياة	مـــــــــــا الاستفهامية	أول الوسمي من المطر
المشهد الثالث	«**وكيف تأويلك لقولي ولا بقي فيما قبلك ملح؟**» ص 396.	يفهم السامع لهذه العبارة أن الملح المقصود هو ملح الطعام	لا النافيـــة + الفعـــــــل الماضي	بينما يحمل الملـــح معنـــى ضمنيا يتمثل في البركـــة، في هذا القول والقسم أيضا عند العرب يحمـــل معنـــى البركة
المشهد الثالث	–« **وكيف صرفت قولي في الدعوة: ولا شمِمْتَ الفَارَةَ بقية عمرك؟ أحسِبْت أني عنِيتُ الفارة المفسدة؟ فذلك دعاء لك لا**	تحمل الفارة معنى صريحا يتمثل في الوعاء الذي يجتمع فيه المسك	لا النافيـــة + الفعـــــــل الماضي	– بيان الرائحة الطيبة التي تفوح مـــن الإبـــل عنـــدما ترعـــى العشـــب وزهـــره وتشـــرب المـــاء فتنـــدى جلودها لتفوح منها رائحـــة المسك

	علي؛ أم حسبت أني عنيت فارة المسك؟ ومالك ولعَتائر الهند؟ شغلها عنك. المترفون!» ص 399.			

نستخلص من خلال هذا الجدول أن رسالة "الصاهل والشاحج" قد حملت بالعديد من العبارات اللغوية التي تحمل معاني ضمنية خفية لا تفهم إلا بالعودة إلى السياق وبهذا برز بعدها التداولي وقد وظفها أبو العلاء المعري، بدل العبارات الصريحة للتعبير عن الأوضاع السائدة في حلب فترة الغزو الرومي، فلجأ الشاحج في نص رسالته الموجهة إلى الإبل إلى استخدام الأمثال والتورية، ذلك أن هذا الجنس الأدبي يقتضي توظيف قضية من قضايا التداولية وهي الاستلزام الحواري.

الخاتمة

من خلال دراستنا لهذا البحث الموسوم بـــ: **دراسة تداولية فـــي رســـالة "الصـــاهل والشاحج"لأبي العلاء المعري**توصلنا إلى مجموعة من النتائج، لعل أهمها:

– يتمحور مفهوم التداولية في اللغة حول دوران الشيء وتبدله وتحوله وفي الاصـــطلاح تهتم بالجانب الاستعمالي للغة وبتحديد القصد من الكلام وتبين أثر الســـياق فـــي تحديـــد المعنى.

– تعد التداولية أحدث تمظهر للسانيات، تتجـــاوز دراســـة اللغـــة بمســـتوياتها الصـــوتية والصرفية والتركيبية إلى التأكيد على أهمية القصد والسياق.

– بعد تتبعنا لمراحل نشأة التداولية توصلنا إلى أنها منبثقة عن الأبحاث الفلسفية اللغويـــة، ثم تجاوزتها لتدرس اللغة دراسة علمية تهتم بالجانب الشكلي للغة، إلا أن هـــذه الدراســـة ظلت صورة شكلية إلى أن ظهر ما يعرف بالتداولية واســـتكمل هـــذا الـــنقص، إذ اهـــتم بالجانب الاستعمالي للغة، وتأسس هذا العلم على يد عالمين اثنين هما "تشـــارلز ســـاندرز بيرس" و "تشارلز موريس".

– تعددت مصطلحات التداولية حسب الحقل المعرفي لكل باحث ومفكر والبيئة التي نشـــأ فيها والظروف المحيطة بها، ومن تلك المصطلحات: المقامية، الوظيفية، السياقية، ورغـــم تعدد هذه المصطلحات إلا أنها تلتقي في حقل واحد وهو حقل الاستعمال اللغوي.

– تعد الكتابة على ألسنة الحيوانات جنسا أدبيا ذا طابع خلقي تعليمي، الغاية مـــن ورائهـــا أخذ العبرة والتعبير عن خبايا النفس على ألسنة الحيوانات، ويتم انتاجها على سبيل المتعة أو التعليم، تشتمل على الرمز، تحمل مغزى يستنتجه السامع أو القارئ من خلال الـــتمعن فيها.

- تعد الأفعال الكلامية المنطلق الأول والتأسيسي للفكر التداولي ومن رحمها انبثق الاستلزام الحواري، والأقوال المضمرة والافتراض المسبق والإشاريات بأنواعها.

- استخدم "أبو العلاء المعري" في رسالته أدوات ربط متنوعة، يكمن أثرها في تماسك النص وترابط أجزائه، ومن تلك الروابط الإشاريات (الشخصية، الزمانية، المكانية).

- تعد الإشاريات الشخصية من أكثر آليات التداولية بروزا في متن رسالة (الصاهل والشاحج) فقد وظفت بصيغة المتكلم والمخاطب والغائب، لتربط مفاصل النص ببعض ولكي تضفي على ثنايا هذه الرسالة لمسة جمالية فنية وتداولية.

- أدى توظيف الإشاريات الزمانية في ثنايا الرسالة إلى إدراك قصدية المتكلم، فقد عمد المعري إلى توظيفها بنوعيهامبهمة ومختصة، إلا أن الغلبة للمختصة منها لأنها تحدد الإطار الذي جرى فيه التخاطب بشكل دقيق مما يحقق مبتغاه من وراء انتاجها، وهو عرض الحالة السياسية لحلب ووصف الخوف الذي يعتري العامة من الغزو الروماني المرتقب حدوثه على عكس الظروف المبهمة التي قل استخدامها.

- قام البعد التداولي للمكان على ثلاثة أماكن رئيسية وهي: حماة، الأرض، وحلب، بالإضافة إلى العديد من الأماكن الموظفة.

- اعتماد "أبي العلاء المعري" على الإضمار راجع إلى كونه يخاطب من هو أعلى رتبة منه –عزيز الدولة– وللدلالة على المخزون اللغوي الجيد الذي يمتلكه كليهما حين يؤدي استخدام المضمر إلى براعة الكاتب وضرورة التمعن في ثنايا الرسالة من أجل تحديد المعنى الخفي للعبارات الصريحة.

- بعد تفحص الرسالة واستخراج بعض الأفعال الكلامية منها نستنتج أن الأفعال الإخبارية قد وظفت بشكل لافت للانتباه لأن أبا العلاء المعري يحاول إيصال مظلمة أبناء أخته إلى

عزيز الدولة، ليخبره فيها عن ضرورة إيقاف الضريبة المفروضة على أرضهم القاحلة، بالإضافة إلى عرض حالة حلب في فترة الغزو الرومي والخوف والقلق السائد آنذاك.

– من خلال تتبع رسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري" نجد أنه قد تلاعب باللغة كيف ما شاء، فمنحها صورا مجازية عديدة تحمل دلالات مختلفة تصل إلى القارئ بشكل غير مباشر وهذا ما يعرف بالاستلزام الحواري الذي يهتم بطريقة الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني، وقد وظف أبو العلاء المعري العديد من الجمل والصيغ التعبيرية التي تحمل معنيين ولا تفهم إلا بفك شيفراتها لأنه بصدد مخاطبة عزيز الدولة الذي يستطيع فك تلك الشيفرات وحل الألغاز الموظفة لأنه عالم بالشعر والأدب.

– تجسد الكتابة على ألسنة الحيوانات بعدا تداوليا من خلال تحليل الخطاب ممن عرف عليه صفة الكلام (الإنسان) إلى من لا يستطيع الكلام (الحيوان) وفي تلك المفارقة يكتسي الخطاب قيمة تداولية تجعل المتلقي يتمنى سماع صوت "الصاهل والشاحج" مثلما كان سليمان عليه السلام يفهم لغة الهدهد والنمل.

– رسالة "الصاهل والشاحج" عمل أخاذ لا يفهم إلا من خلال التمعن وإعادة القراءة للصول إلى قصد الكاتب.

وفي الأخير نتمنى أن نكون قد استطعنا الإحاطة بمعظم جوانب هذا البحث وإزالة بعض الغموض عن هذا الحقل المعرفي ووضع نقطة بداية لباحث آخر ينطلق من حيث انتهينا ويتعمق بشكل أكبر في هذا الموضوع.

لم يبق لنا بعد نهاية هذا البحث إلا أن نحمد الله تعالى على أن وفقنا إلى إتمامه ونسأل الله التوفيق والسداد في جميع أعمالنا القادمة والله المستعان.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

أولا: المصادر

1- أبو العلاء المعري: رسالة الصاهل والشاحج، تحقيق: عائشة بنت الشاطئ، دار المعارف، المغرب، ط 2، 1404 هـ، 1984م.

2- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، م 1، د ط، 1398م-1978م.

3- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 2، 1404ه - 1984م.

4- ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1417هـ، 1996م

5- ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ج 2، 1399هـ، 1979م.

6- ابن منظور: لسان العرب، أدب الحوزة، إيران، مج 11، (د ط)، 1405هـ.

7- ياقوت الحموي الرومي: معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1993.

ثانيا: المراجع

أ- المراجع العربية

8- أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعرب، مؤسسة هنداوي للتعليم، الثقافة القاهرة، مصر، د ط، د ت.

9- أحمد الهاشمي: القواعد الأساسية للغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

10- أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعري، لجنة التأليف الترجمة والنشر، القاهرة، مصر، د ط، 1309هـ-1940م.

11- أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د ط، د ت.

12- أحمد فهد صالح شاهين: النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، علم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2015.
13- الأزهر الزناد: نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1993م.
14- بهاء الدين محمد مزيد: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي تبسيط التداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2010م.
15-جعفر خريباني: أبو العلاء المعري رهين المحبسين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1411هـ-1990م.
16-جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط 1، 1437هـ، 2016م.
17-خليفة بوجادي: اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط 1، 2009.
18-ركان الصفدي: الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري، وزراة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، سوريا، د ط، د ت.
19-طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د ط، د ت.
20-طه حسين: تعريف القدماء بأبي العلاء، تح: مصطفى السقا وآخرون، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر 1843هـ، 1965م.
21-عائشة عبد الرحمن بن الشاطي، أبو العلاء المعري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د ط، د ت.
22-عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري الهندي: أبو العلاء وما إليه، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1424هـ، 2002م.
23-عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط 1، 2004م.
24-عمر فروخ: حكيم المعرة، مطبعة الكشاف، بيروت، لبنان، ط 2، 1327هـ، 1948م.

25- محمد الشافعي القسطلاني: إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، نص: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 12، 1416هـ، 1996م، حديث رقم 5653.
26-محمد سليم الجندي: الجامع في أخبار أبي علاء المعرب وآثاره، تع: عبد الهادي هاشم، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، ج 1، د ط، 1382هـ، 1962م.
27-محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط 9، أكتوبر، 2008.
28-محمد غنيمي هلال: دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، د ط، د ت.
29-محمد محي الدين عبد الحميد: التحفة السينية بشرح المقدمة الأجرومية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، د ط، 1428هـ، 2007م.
30-محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2002.
31-محمود عكاشة: النظرية البراغماتية اللسانية (التداولية)، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب القاهرة، مصر، ط 1، 2013.
32-وسم مجيد البكري وضرغام محمود الدرة: أبو العلاء المعري بين الزمخشري والرازي دراسة دلالية في ثلاثة مواقف، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، العراق، بغداد، ط 1، 2010.

ب- المراجع المترجمة:

33- فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر: صابر الحباشي، دار الحوار، سوريا، ط1، 2007.
34- ويلم جيمس: البراغماتية، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط 1، 2014م.

ثالثا: المجلات والدوريات:

35- أ.م. د ستار جبر حمود أعجري و م .م محمد حمزة إبراهيم، «المنهج التداولي في فكر طه عبد الرحمن»، مجلة كلية الدراسات الإنسانية، ع 2، 2012م.

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات:

العنوان	الصفحة
مقدمة	أ- ه
مدخل: أبو العلاء المعري والكتابة على ألسنة الحيوانات	6
أولا: أبو العلاء المعري	7
1- ترجمة المؤلف	7
2- أسرته	11
3- أبو العلاء المعري وآفة العمى	16
4- طلبه للعلم ورحلاته	19
5- موعد وسبب عزلة أبي العلاء المعري	26
6- شيوخه	27
7- تلاميذه	29
8- مؤلفاته	30
9- شيخوخته	32
10- وفاته	34
ثانيا: الكتابة على ألسنة الحيوانات	35
الفصل الأول: مصطلحات مفاهيمية	37
أولا: تعريف التداولية	38
1- الدلالة اللغوية	38
2- الدلالة الاصطلاحية	41
ثانيا: نشأة التداولية	47
ثالثا: قضايا التداولية	53
1- الإشارة	53
2- متضمنات القول.	57
3- الفعل الكلامي	59

4- الاستلزام الحواري	66
رابعا: أهمية التداولية ومهامها	69
1- أهمية التداولية.	69
2- مهامها	71
خامسا: رسالة "الصَاهِلِ والشَاحِجِ"	72
1- لمن أملى المعري رسالة "الصَاهِلِ والشَاحِجِ" ومتى ألفها؟	72
2- سبب تأليف الرسالة	73
3- عدد النسخ المتوفرة من الرسالة	74
4- مضمون الرسالة	75
الفصل الثاني: قضايا التداولية في رسالة "الصَاهِلِ والشَاحِجِ"	81
أولا: الإشاريات	81
ثانيا: متضمنات القول	120
ثالثا: الأفعال الكلامية	127
رابعا: الاستلزام الحواري	137
الخاتمة	144
قائمة المصادر والمراجع	148
فهرس الموضوعات	152